كتاب

الأخلاق والسير

أو رسالة في مداواة النفوس
وتهذيب الأخلاق، والزهد في الرذائل

تأليف

الإمام الكبير أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي

(٣٨٤ - ٤٥٦هـ)

تحقيق

إيفا رياض

راجعه، وقدم له، وعلق عليه

عبد الحق التركماني

دار ابن حزم

بين يدي الكتاب

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمَدُه، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئاتِ أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أنْ لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريك له.

وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ.

أما بعد؛ فهذا كتابُ الأخلاقِ والسِّيَرِ، للإمام الكبير، الفقيه الحافظ، الأصوليِّ النَّظَّار، المجتهد المُتَفَنِّنِ، المتكلِّم الأديب، ذي العلوم والمعارف الواسعة الباهرة؛ أبي محمَّدٍ عليِّ بنِ أحمد ابن حزم الأمويِّ القرطبيِّ الأندلسيِّ (٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ)، طيَّب الله ثراه، ورضي عنه وأرضاه، وجعل الجنة نُزُلَه ومنزله ومأواه[1]؛ قد آن له أن يأخذ مكانه اللائقَ به في المكتبة الإسلامية؛ بعد أن توفرتْ له في هذه الطبعة الجديدة المُتْقَنَة ـ جميع أسباب التَّحقيق العلميِّ؛ على نُسخ الكتاب الخطِّيَّة الخَمْس المعروفة في مكتبات العالَم.

---

(١) لم أر كتابة ترجمة له في مقدمتنا لهذا الكتاب لشهرته، وكثرة ما كتب عنه.

وإذا كان الكتاب الفكري يُعبِّرُ عن عقليَّة كاتبه، ويترجم طريقة تفكيره ونظرته للكون والحياة؛ فإنّ هذا الكتاب يعبِّر عن شخصية ابن حزم بما اتصفت به من ذكاءٍ عظيم، وعقليَّةٍ كبيرةٍ، ومعرفةٍ موسوعِيَّةٍ، وخبرةٍ تامَّةٍ بالحياة؛ هي ثمرةُ أفراحه وأحزانه، وانتصاراته وهزائمه، وصباه وشيخوخته، وعلومه وأفكاره، وتفاعله الحيِّ النَّضِرِ مع محيطه ومجتمعه. فرأى أن لا يَحْرِمَ قُرَّاءَهُ من نتاج تأمُّلاته الفكرية، وثمار تجاربه الشَّخصية، فكان هذا الكتابُ؛ مادّةً علميةً زاخرةً لمن أراد أن يُصْلِحَ أخلاقَه، ويُرَوِّضَ نفسَه، ويقوِّمَ سلوكه، ويسلك طريقَ الأتقياء الصَّالحينَ.

ولمَّا كانَ تهذيبُ الأخلاق، وتزكيةُ النُّفوس، مقصداً أساسيّاً ومهمّاً من مقاصد البعثة النَّبويَّة ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١]، وقالَ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»(١)؛ فإنَّ العنايةَ بهذا الجانب؛ دراسةً وبحثاً، وعلماً ودعوةً، وكتابةً وتأليفاً، تأتي في إطار دعوة الإسلام الكاملة الشَّاملة، الكفيلة بتبصير العقول، وهداية القلوب، وتصحيح العبادات والأعمال، وتقويم الأخلاق والسُّلوك.

ومن هنا أَوْلى علماءُ الإسلام البحثَ الأخلاقيَّ عنايتهم، وأفردوه بالتَّصنيف، ولهم في ذلك منهجان:

(١) «صحيح الأدب المفرد»: (٢٠٧).

الأول: المنهج الإسلاميُّ الأصيل، المتمثِّلُ في اعتماد الآيات القرآنية، والأحاديث النَّبويَّة، والآثار السَّلفية، وتوظيف العمل العلميِّ؛ لتصنيف فوائدها، واستخراج كنوزها، وتقريب معانيها.

وهذا المنهج هو منهج أئمَّة السُّنَّة والأثر، مثل الإمام البخاريِّ (**٢٥٦هـ**) في كتابه: «الأدب المفرد»، وتلميذه الإمام التِّرمذيِّ (**٢٧٩هـ**) في: «الشَّمائل المحمدية»، والحافظ ابن أبي الدُّنيا (**٢٨١هـ**) في مصنَّفاته الكثيرة في هذا الباب، وغيرهم كثير، بَلْهَ ما تجده في تضاعيف كتب السُّنَنِ والآثار والفِقْه وغيرها من الفصول والأبواب النَّافعة الجامعة في الأخلاق والآداب الدِّينيَّة والاجتماعيَّة.

الثاني: منهج الإسلامِيِّين الذين سقطوا في شِراك الغزو الفكري، الذي قاده في وقتٍ مبكرٍ دهاقنةُ العجم؛ من كلِّ كائدٍ للأمَّة المصطفاة، ساعٍ في صرف المسلمين عن المنابع النَّقِيَّة الصَّافية لعقيدتهم وفكرهم، فتأثَّروا بفلسفاتهم وثقافاتهم الدَّخيلة الوافدة، وبذلوا جَهْدَهُمْ في التَّوفيق بينها وبين الرُّؤْية الإسلاميَّة الصَّادرة عن نصوص الكتاب والسُّنَّة، فكان أن انحرف البحثُ الأخلاقيُّ عندهم عن وجهته الفِطْريَّةِ والشَّرعيَّةِ، وأخذ منحىً فلسفياً متلوِّثاً بفكرِ أممٍ حائرةٍ تائهةٍ، حُرِمَتْ ـ أو حَرَمَتْ هي نفسَها ـ من هداية الوحي الإلهيِّ.

وهذا المنهجُ واضحٌ عند ابن المقفَّع (**١٤٢هـ**)، وابن مسكويه (**٤٢١هـ**)، وأبي حيَّان التَّوحيديِّ (**٤١٤هـ**)، وابن سينا (**٤٢٨هـ**)، والرَّاغب الأصفهانيِّ (**٥٠٢هـ**)، وأبي حامدِ الغزَّالي (**٥٠٥هـ**)، وغيرهم، على تفاوتٍ بينهم.

ويقف كتاب ابن حزم ـ هذا ـ في موقع متميِّز، له خصوصيَّته وتميُّزه النَّابع من شخصية ابن حزم ـ نفسه ـ والخلفيَّاتِ الفكرية لها. إذ ينطلقُ ابن حزمٍ ـ وهو محدِّثٌ وفقيهٌ، صاحبُ سنَّةٍ واتِّباعٍ ـ من قاعدته العلمية المستندة إلى اتباع نصوص الكتاب والسُّنَّة، ورؤيته الفكرية المستندة إلى العقيدة الإسلامية، والتزامها في البحث النَّظريِّ والتَّجريبيِّ، والانطلاق من خلالها إلى تفسير حركة الحياة والنَّاس.

وقد كان هذا أهمَّ عاملٍ في توجيه ابن حزم الوجهةَ الصَّحيحةَ، وتسديده في مجمل آرائه ونظريَّاته، فبالرغم مِمَّا تركت عليه دراساته الفلسفيَّة والمنطقيَّة في شبابه من تأثُّرٍ بالاتجاه العقليِّ الجدليِّ؛ فإنَّنا نجدُ الخطابَ الدِّينيَّ ـ في هذا الكتاب ـ جَليّاً واضحاً، يتداخل مع مبادئه ومقاصده.

ويمكننا الإشارةُ هنا إلى ثلاثةٍ من معالمه البارزة:

الأول: توجيه الإنسان العاقل إلى وظيفته الأساسيَّة في هذه الحياة، المتمثِّلة في طاعة الله تعالى، والتَّوجه إليه، والاستعداد ليوم المعاد، يقول ابنُ حزمٍ ـ رحمه الله ـ:

«إذا تعقَّبتَ الأمورَ فسدتْ عليك كلُّها، وانتهيتَ في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدُّنيا إلى أنَّ الحقيقة إنَّما هي: العملُ للآخرة فقط» [الفقرة: ٤].

ثم يبيِّنُ الدَّور النَّفسيَّ والاجتماعيَّ الهامَّ لهذا التَّوجه الدِّينيِّ؛

في نيل ما يصبو إليه كلُّ إنسانٍ، ويبذل جهده لتحقيقه؛ ألا وهو: طرد الهمِّ عن نفسه، فطرد الهَمِّ هو: الغرض الذي يستوي النَّاس كلُّهم في استحسانه وطلبه.

وعلى هذا الأساس يفسِّر ابن حزم حركة حياة البشر، فالكلُّ إنَّما يسعى في طرد الهمِّ عن نفسه: «وإنما طلب المال...، والصِّيتَ...، واللذَّاتِ...، والعلمَ...، وإنَّما أكلَ منْ أكل، وشرب من شرب، ونكح من نكح، ولبس من لبس،... ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال، وسائر الهموم... فاعلم أنَّه مطلوبٌ واحدٌ، وهو: طرد الهمِّ».

وهذه الأسباب التي يتشبَّثُ بها الإنسان لطرد الهمِّ عنه، ونيل السَّعادة في حياته، إنَّما هي أسباب جزئيَّةٌ آنيَّةٌ موهومةٌ، إن لم تتضمَّن هي هموماً في نفسها؛ كانتْ سبباً لهموم حادثة، مكدِّرةٍ أو مفسدةٍ لكلِّ سعادةٍ وهناءٍ، أما العمل للآخرة؛ فإنه سالمٌ من كلِّ عيبٍ، خالصٌ من كلِّ كَدَرٍ، موصلٌ إلى طرد الهمِّ على الحقيقة:

«فاعلم أنَّه مطلوبٌ واحدٌ؛ وهو: طردُ الهمِّ، وليس له إلَّا طريقٌ واحدٌ؛ وهو العمل لله تعالى، فما عدا هذا فضلالٌ وسُخْفٌ» [الفقرة: ٥].

وابن حزم يستند في هذه الرُّؤية الرَّبَّانيَّة الصَّائبة؛ إلى بصيرته الإيمانية النَّافذة التي يتغلَّب بها على زخرف الحياة الدُّنيا، وشهواتها ومتعها الخادعة الزَّائفة، ويربأ بنفسه أن يلقي بها في

مهاوي الصّراع على حُطامها؛ نيّةً وقصداً، سعياً وعملاً، حرصاً وشُحّاً، منافسة وحسداً، كذباً وغشّاً، فيكون ضحيّة مفرداتها الصّغيرة التّافهة.

وقد نَبَّهَ النّبيُّ ﷺ إلى هذه الحقيقة، بقوله: «مَنْ جَعَلَ الهمومَ همّاً واحداً؛ هَمَّ المعاد، كفاه الله سائر همومه، ومن تشعَّبَتْ به الهموم من أحوال الدُّنيا لم يبال الله في أيِّ أوديتها هلك»[1].

وبطبيعة الحال؛ فليسَ الأمرُ كما ظَنَّ بعضهم من أنَّ ابنَ حزم: «آمنَ بأنَّ الهمَّ دائماً شرٌّ»!![2] وأيضاً: ليسَ المقصودُ بهذا إلغاء كلّ همٍّ - أيْ: إرادةٍ ورغبةٍ وطلبٍ - من حياة الإنسان، فإنَّ الهمّ صفةٌ ملازمةٌ للنَّفس البشريَّة وحياتها، ولهذا كان أصدقَ الأسماء - كما قال رسول الله ﷺ: حارثٌ وهمَّامٌ[3]. وإنّما المقصود توجيهه إلى ما يصلح حياته، ويجمع عليه قُوَّته، ويضمن له النّجاح والفلاح في أولاه وأخراه، ويوفّر لمجتمعه أسباب تخفيف الصّراع الماديّ الآثم، فتمتلىء حياته - رغم كلِّ الهموم والآلام - بالسَّعادة والطّمأنينة وانشراح القلب، ويصبح أمره كلُّه خيراً؛ كما قالَ رسول الله ﷺ: «عَجَباً لأَمْرِ المؤمِنِ! إنَّ أمرَهُ كلَّه خيرٌ، وليسَ ذاكَ لأحدٍ إلّا للمؤمن؛ إنْ أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ؛ فكانَ

(١) «صحيح سنن ابن ماجة»: (٣٣٣٠).
(٢) الدكتور إحسان عباس: رسائل ابن حزم ٣٢٧/١.
(٣) «صحيح سنن أبي داود»: (٤٩٥٠).

خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاءُ صبر؛ فكان خيراً له»[1].

الثاني: هو التأكيد على اتّباع النّبيِّ ﷺ، والاقتداء به، واعتبار ذلك الأصلَ الذي يجب للإنسان أنْ يَنْطَلِقَ منه لتصحيح أخلاقه، وتقويم سلوكه:

«من أراد خيرَ الدُّنيا والآخرة، وحكمةَ الدُّنيا، وعدلَ السِّيرة، والاحتواءَ على محاسن الأخلاق كلِّها، واستحقاقَ الفضائل بأسرها، فليقتدِ بمحمّدٍ رسول الله ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيرَهُ؛ ما أمكنه، أعاننا الله على الاتّساء به؛ بمنّه، آمين» [الفقرة: ٣٩].

وبهذا المفهوم الواسع الشَّامل لـ: الاتِّباع؛ تستغرقُ السُّنّة النّبويّة حياة المسلم، تأويلًا لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذه (الأُسْوَةُ) هي أسوةٌ متكاملةٌ، فهي أسوةٌ عِلميَّةٌ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ - ٤]، يقول ابن حزم:

«من جهل معرفةَ الفضائل؛ فليعتمد على ما أمر الله - تعالى - ورسوله؛ فإنّه يحتوي على جميع الفضائل» [الفقرة: ٢١٧].

وهي أسوة عَمليّةٌ؛ إذ أنَّ رسولَ الله ﷺ؛ كما يقول ابن حزم:

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٩٩).

«هو القدوة في كلّ خيرٍ، والذي أثنى الله تعالى على خُلُقه، والذي جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها، وأبعده عن كلّ نقصٍ» [الفقرة: ١٤٠].

وهذا الاتجاه عند ابن حزم يلتقي - وكما هو واضحٌ - مع المنهج الإسلاميّ الأصيل - الذي أشرنا إليه آنفاً - في الاستغناء بنصوص الكتاب والسُّنَّة عن غيرهما، وقد عبَّر الإمام السَّلفيُّ صديق حسن خان - رحمه الله - عن هذا - بعد أن ذكر جملةً من الكتب التي سار فيها أصحابها على المنهج الثاني -:

«قلتُ: وقد قَضَتِ الشَّريعةُ المصطفويَّةُ حقَّ علم الأخلاق فلم تدعْ لأحدٍ فيه مقالًا يقوله، وكلاماً يتكلَّم به، فالكتاب والسنة يكفيان - لمن يريد إدراكَ هذا العلم، والتَّحليَ به - عن تلك الكتب المشار إليها، فإنَّ الصَّباح يغني عن المصباح»[1].

قلتُ: وهذا حقٌّ لا ريب فيه.

وقد يخيَّلُ إلى النَّاظر في ثنايا هذا الكتاب؛ أنَّ ابن حزم ناقضَ نفسه، ونقض هذا الأصلَ، عندما فتح على نفسه باب الاستفادة من التَّجارب الإنسانية، وسجَّل آراءه الشَّخصية القائمة على المشاهدة والملاحظة المعرَّضة للخطأ والانحراف؛ فليطمئنَّ، فليس هاهنا من تناقضٍ، فالاتباعُ لا يمنع من الاستفادة من التَّجربة الإنسانية، ما زال ذلك منضبطاً بالضوابط الشَّرعية والمنهجية.

(١) أبجد العلوم: ٣٧/١.

نعم؛ التَّوفيق في ذلك لا يكون إلَّا لمن تشرَّب قلبه بعلوم الكتاب والسُّنَّة، والآثار السَّلفية. وهذه الطَّريق شائكةٌ، ومنها أوتي ابن حزم في غير ما موضعٍ من كتبه، والمعصوم من عصمه الله - تعالى -.

الثالث: والكلام عن المعلمين السَّابقين عند ابن حزم في كتابه هذا يقودنا للبحث في معلمٍ ثالثٍ، هو الأهمُّ فيما يتعلَّق بالمنهج التّربويّ، وهو ثمرة المعلمين السَّابقين وناتجٌ عنهما، ومكمِّل لهما، وهو مبدأ التَّربية بالعلم، والإيمان، وإصلاح العقول والقلوب؛ بما يثمر إصلاح الأقوال والأعمال.

ولا شك أنَّ هذا هو الأساس الذي انطلق منه الرُّسُل - صلوات الله تعالى عليهم - لإصلاح سلوك النَّاس وأخلاقهم. فالتَّغيير لا بدّ أن يكونَ أولًا - وقبل كلّ شيءٍ - تغييراً عقدياً، مبنياً على الاعتقاد الصَّحيح في الله تعالى، وتوحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، وآثارها في الكون والحياة. فالفساد مبدأه من القلب، ثم يتسع ليشمل إرادات الإنسان وأفعاله؛ كما قالَ النبي ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه؛ ألا وهي القلبُ»[1]؛ فمن هناك يجب أن يبدأ الإصلاح.

ويمكن رصدُ ثلاثة أصول لهذا التَّوجُّه عند ابن حزم:

(١) «صحيح البخاري»: (٥٢).

١ ـ التّربية بالعلم، إذ أنّ: «منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمةٌ، وهو أنّه يُعلّم حسن الفضائل؛ فيأتيها ـ ولو في النُّدرة ـ، ويعلّم قبح الرذائل؛ فيجتنبها ـ ولو في النُّدرة ـ، ويسمع الثّناء الحسنَ فيرغب في مثله، والثّناء الرديّ فينفر منه، فعلى هذه المقدّمات يجب أن يكون للعلم حصّة في كلّ فضيلةٍ، وللجهل حصّة في كلّ رذيلةٍ. ولا يأتي الفضائلَ من لم يتعلّم العلم؛ إلّا صافي الطّبع جداً، فاضل التركيب، وهذه منزلة خُصَّ بها النبيُّون ـ عليهم السلام ـ» [الفقرة: ٤٣].

وهكذا يقرّر ابن حزم أنَّ العلم هو المصدر الأساسي للتّربية، وهذه حقيقة ملموسة في حياة النّاس، تعرف بالفطرة، والشّرع، والعقل، وبالتّجربة والاستقراء.

٢ ـ والعلم المقصود هنا هو علم الكتاب والسُّنّة، فأجلُّ العلوم ـ كما يقول ابن حزم ـ ما قرّبك مِن خالقك ـ تعالى ـ، وما أعانك على الوصول إلى رضاه. [الفقرة: ٣٠]. لذلك يأمر من جهل الفضائل أن يعتمد على ما أمر الله ـ تعالى ـ ورسوله؛ فإنّه يحتوي على جميع الفضائل. [الفقرة: ٢١٧].

٣ ـ وليس المقصود بالعلم هنا المعرفة الذّهنية المجرّدة؛ بل ما يثمره من الإيمان الصّادق، واليقين الثّابت، والتّديُّن الصّحيح، وعلى هذا الأساس يجب أن يكون التَّقْييمُ الأخلاقيُّ. يقول ابن حزم ـ رحمه الله ـ:

«لا مروءة لمن لا دين له» [الفقرة: ١٨].

«من استخف بحرمات الله ـ تعالى ـ فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه» [الفقرة: ٦٩].

ويجعل ابن حزم التّدين مقياساً عاماً، آخذاً بمبدأ النسبية في تحقُّقه، فيقول:

«ثِقْ بالمتديِّن؛ وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخفّ؛ وإن أظهر أنّه على دينك» [الفقرة: ٦٨].

فالتّدين هو النّظام الدّاخليُّ الذي يمكن أن يَضْبِطَ إرادات الإنسان، ويقوّم سلوكه.

وهذا الاعتبار عند ابن حزمٍ ـ رحمه الله ـ لمطلق التّدين، بغض النّظر عن صحّته؛ إنّما هو إشارة منه ـ فيما يظهر لي ـ إلى أثر الدّين في السُّلوك الإنساني؛ حتّى عند الأمم التي انحرفت عن الدّين الحقّ. فالدّين هو مصدر القيم والأخلاق في حياة البشريّة، وعندما تنحرف الأمم عن دينها؛ تتحوّلُ الأحكامُ الدّينيةُ إلى تعاليم وقيم اجتماعيةٍ موروثةٍ؛ تغذّيها بقايا الخير من دينها، وبقدر انسلاخها عن دينها، وجهلها بها، وبعدها عنها؛ يكون انسلاخها من الأخلاق الفاضلة.

وهذا الاعتبار النّسبي منهج إسلاميٌّ أصيلٌ، فقد نبّه إليه النّبيّ ﷺ في قضيّة المرأة ـ وهي من القضايا التي انحرف العرب فيها انحرافاً كبيراً؛ لجاهليّتهم وبعد عهدهم بالنبوة ـ فقال ﷺ: **«إن الله يوصيكم بالنّساء خيراً، إنّ الله يوصيكم بالنّساء خيراً؛ فإنّهن أمهاتُكم وبناتُكم وخالاتُكم. إنّ الرجل من أهل الكتاب**

يتزوّجُ المرأةَ وما تعلَقُ يداها الخيطَ[1]، فما يرغبُ واحدٌ منهما عن صاحبه حتّى يموتا هَرَماً».

وقد أورد العلامة الألبانيّ[2] هذا الحديث في: «الصّحيحة»[3]، ثم علّق عليه بقوله: كان ذلك منهم حين كانوا على خُلُقٍ وتديُّنٍ؛ ولو بدينٍ مبدَّلٍ، أما اليومَ فهم يحرِّمون ما أحلّ الله من الطَّلاق، ويبيحون الزّنى، بل واللِّواط علناً!!

❁ ❁ ❁

فهذه المعالم والأصول للبحث الأخلاقيّ عند ابن حزم، ينبّهنا إلى حقيقة العلاقة بين العقيدة والعمل، فالعلم النّافع، والإيمان الصّادق؛ يُوجدانِ ويُثمرانِ ـ بلا ريب ـ العملَ الصالح، والأخلاقَ الفاضلة، ويدلُّ على هذا كثيرٌ من الأحاديث الصّحيحة، كقوله ﷺ:

ـ «لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتّى يحبَّ لأخِيه ما يُحِبُّ لنفسه»[4].

---

(1) كذا عند الطبراني، و«مجمع الزوائد»: ٣٠٢/٤، وفي: النهاية: وما يعلقُ على يديها الخيط. وقال: قال الحربيُّ: يقول من صغرها وقلة رفقها، فيصبر عليها حتى يموتا هرماً. والمراد حثُّ أصحابه على الوصية بالنساء، والصبر عليهنّ؛ أي: أن أهل الكتاب يفعلون ذلك بنسائهم.

(2) الشيخ الإمام محدّث العصر، وأحد أركان الدّعوة السّلفية التّجديدية المعاصرة: محمد ناصر الدين الألباني؛ توفي يوم السبت ١٤٢٠/٥/٢١هـ، الموافق لـ١٩٩٩/١٠/٢م، رحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جناته.

(3) رقم: (٢٨٧١)، وعزاه للطّبراني في: «المعجم الكبير» ٢٠/(٦٤٨)، وابن عساكر في: «تاريخ دمشق». قلت: ورواه أيضاً: ابن أبي عاصم في: «الآحاد والمثاني» (٢٤٤٢)، والحارث في: «مسنده» كما في «بغية الباحث» (٤٩٥) كلهم من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه.

(4) «صحيح البخاري»: (١٣).

ـ «إنّ الحياءَ مِنَ الإيمان»[1].

ـ «من كان يؤمِنُ بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو ليَصْمُت»[2].

ـ «ليس المؤمنُ بالذي يَشْبَعُ؛ وجارُهُ جائعٌ إلى جَنْبِه»[3].

وغير ذلك من الأحاديث التي أورد العلماء ـ كالإمام البخاريّ، وغيره ـ جملةً منها في كتاب الإيمان، للدّلالة على زيادة الإيمان ونقصانه، وأنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ. فهناك علاقة أكيدة بين الإيمان والأخلاق، لكنَّ الإيمانَ هو أصله ومصدره، فإذا ثبت واستقرَّ في القلب أثمر الأخلاقَ الطَّيِّبَةَ، ثم تكون هذه دليلًا على الإيمان؛ تزيده، وتُثَبِّتُه، وتقَوِّيه، ولا بأس ـ حينئذٍ ـ من التّفصيل في الدّعوة إلى تصحيح الأخلاق، والتّأكيد على أهمّيّتها، وقد صارت القلوبُ عامرةً بالإيمان، والنُّفوسُ مؤهلةً لقبول الحقّ والسّير على مقتضاه.

أمّا تحويل الدّعوة الإسلامية إلى دعوةٍ أخلاقيّةٍ إصلاحيّةٍ؛ تُعنى بالفضائل والحثّ على مكارم الأخلاق؛ فهو انحراف عن المنهج النّبويّ، وقلبٌ للحقائق، وتضييعٌ للجهود، ومَسْخٌ للدّعوة الدّينيّة وأهدافها.

---

(1) «صحيح البخاري»: (٢٤).

(2) «صحيح البخاري»: (٦٠١٨).

(3) «صحيح الأدب المفرد»: (٨٢).

فكيف يمكن أن يستقيم سلوك الإنسان؛ وهو يعتقد في ربّه وخالقه اعتقاداً فاسداً؟!

أم كيف يمكن أن تصلح أخلاقه؛ وهو معرضٌ عن منهج الله، متنكّبٌ عن صراطه المستقيم؟!

أم كيف للنّفس الإنسانية أن تزكو؛ وهي مريضةٌ بشبهاتٍ تَتِيهُ بها في الزّوايا المظلمة من الحَيْرة والاضْطِراب؟!

وتأمّل جوابَ النّبيِّ ﷺ لمّا سُئِلَ: ما تزكيةُ النَّفْسِ؟ فقال: «أنْ يعْلَمَ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مَعَهُ حيثُ كانَ»[1]؛ تنتفع بما ذكرناه بِمَنِّه ـ تعالى ـ وفضله.

بقيَ أن نشير إلى أنَّ التأكيد على هذا الجانب ـ وهو علميٌّ إيمانيٌّ كسبيٌّ ـ لا يعني إلغاء اعتبار العوامل الفِطْريَّة، والجِبِلّيَّة التي تدخل في البناء الأخلاقيِّ، وقد وقف ابن حزم عند هذه الجوانب ـ أيضاً ـ[2] ولكن مِن شأن البحث الأخلاقيِّ الهادف التأكيد على العوامل الكسبيَّة، لأنّها هي التي تدخل في حدود الإمكان، وبالتّالي يمكن إيجادها وفعلها، أما الأولى فيمكن تطويرها وتوظيفها.

على أنّه ثَمّةَ هاهنا إشكاليةٌ تربويةٌ طالما عانى منها ابن

(١) رواه الطبراني في: «المعجم الصغير» (٥٥٥)؛ عن: عبدالله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، بإسنادٍ صحيح. وأورده الألباني في: «الصحيحة» (١٠٤٦). ومعنى الحديث: أن الله ـ تعالى ـ علمه محيط بكل مكان وزمان، والله تعالى في السماء، فوق عرشه، بائن عن خلقه، كما هو عقيدة أهل الإسلام والسنة.

(٢) انظر مثلاً: الفقرات: (٤٣، ٩٠، ١٣٢، ١٨٣، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢٣٢).

حزم، وعبثاً حاول أن يجد لها حلّاً، أو حتّى تفسيراً؛ سوى أن تكون قدراً محضاً. وذلك أنَّ هناك صنف من النّاس لا ينتفعون بعلمٍ، ولا تؤثّر فيهم موعظةٌ، ولا تقوّم سلوكهم تربيةٌ، بل ربّما لا يزيدهم ذلك إلّا شرّاً!!

هذا الصّنف يصفهم ابن حزم بـ: «ذوي التّراكيب الخبيثة» [الفقرة: ١٠٣]، وهو يشير بذلك إلى ما اجتمع في نفوس هؤلاء من الكِبْر، والعُجْب، والغرور، والحقد، والحسد، . . . في بلاء متسلسل من أمراض القلوب المنتجة لاعوجاج السُّلوك.

هذا الصّنف الخبيث؛ يمتهن الشّرَّ، ويسعى بالفتنة، ويلتذُّ بكلّ ما هو شاذٌّ ومنكرٌ في السُّلوك الإنسانيّ. . . !

هذا الصّنف الخبيث؛ قد أهلكَتْه الصّفات الإبليسيّة والسَبُعيّة. . . !

هذا الصّنف الخبيث؛ لا يفسّر مواقفَ النّاس إلّا من خلال منظار خُبْثِه؛ فأنّى له أنْ يأتي عليه يوم يصلح فيه:

«وقد شاهدتُ أقواماً ذوي طبائعَ رديَّة ـ وقد تصوّر في أنفسهم الخبيثة أنّ النّاس ـ كلهم ـ على مثل طبائعهم ـ لا يصدّقون أصلاً بأنّ أحداً هو سالم من رذائلهم بوجهٍ من الوجوه، وهذا أسوأ ما يكونُ من فساد الطّبع، والبعد عن الفضل والخير، ومن هذه صفتُه لا يُرجى لها معاناةٌ أبداً» [الفقرة: ٢٠٤].

هذا الصِّنف الخبيث؛ قد أعيى أهل العلم والحلم والحكمة أن يجدوا سبيلًا إلى إصلاحه، أو حتّى دفع شرّه وضرره...!

هذا الصِّنف الخبيث؛ قد استيأس منه العلماء والمصلحون:

«الحكيم لا ينفعه حكمته عند الخبيثِ الطَّبع، بل يظنُّه خَبيثاً مثله»!! [الفقرة: ٢٠٤].

فهذا الصِّنف الخبيث؛ يبصق في وجهه كلُّ شريفٍ، ويحتقره كلُّ نبيلٍ...!

فمن ابتلي به؛ فليجعلْ بينه وبينه رَدْماً، وليستعذْ بالله - تعالى - من شرّه، وليكثر من قراءة المعوِّذتين!!

❀ ❀ ❀

أظنُّ أنه في ضوء ما أشرتُ إليه من الخطوط العريضة لهذا الكتاب؛ يمكن فهم نصوصه فهماً صحيحاً مثمراً، ويبقى الكتاب - بعد ذلك - منجماً غنيّاً؛ يمكن استخراجُ كثيرٍ من الفوائد منه، خاصةً فيما يتعلّق بشخصيَّة ابنِ حزمٍ، وحبّه للحقّ والعدل والصِّدق، وبغضه الشَّديد للباطل والظُّلم والكذب، وهذه أصول مهمّة تتفرّع عنها أخلاقٌ وسلوكياتٌ كثيرةٌ، فالتنبُّه لها ممّا يعين على فهم القيَم التي ساعدت على تكوين شخصيَّته، وبالتَّالي يمكن رصد بعضد الأسسِ التي تدخل في بناء الرجال الكبار!!

وهذا ما سأفصِّل القولَ فيه في مقدِّمتي لـ: «طوق

الحمامة»[1]، لتعلُّق الموضوع - أيضاً - بجدليَّة: «الحبّ»، و«الصَّداقة» عند ابن حزم.

أرجو أن أكون قد وفِّقتُ بعملي في خدمة هذا الكتاب؛ في إعادته إلى الوسط الدينيّ، ليحتلَّ مكانه الطبيعيَّ في المكتبة الإسلامية، وهذا ما سأفعله - أيضاً - بـ: «طوق الحمامة».

إنَّ تجديد نشر تراث ابن حزمٍ - رحمه الله -، والتّوفُّر لخدمته؛ خدمةٌ تجمع بين التَّحقيق العلميّ، والنَّقد الموضوعيّ؛ يأتي مشاركةً متواضعةً في إطار استيعاب الخطاب السَّلفيّ التَّجديديّ الشَّامل لمعطيات التُّراث الفكرية والاجتهادية، وقدرته على مراجعتها ونقدها، واستنفار الجوانب الحيَّة المشرقة فيها، في ضوء محاكمتها إلى الكتاب والسُّنَّة، وأصول وثوابت العقيدة والشَّريعة والمنهج السَّلفيّ...

فهي خدمةُ تجديدٍ لا تقليدٍ..!

والحبُّ والولاء فيها قائمٌ على أساس وجود أصل الاتّباع وتحرِّي الحقّ ونصرته عند ابن حزم، ثم بقدر تحقُّق ذلك يعْظُمان،... ذلك لأنَّ من نَبُلَ في الإسلام فإنَّما نَبُلَ باتّباع

(١) وسيصدر قريباً - إن شاء الله تعالى - عن دار ابن حزم في بيروت، في أول طبعة تصدر في العالم العربي مقابلة ومحققة على نسخة الكتاب الخطية الوحيدة المحفوظة في مكتبة ليدن في هولندا، إذ أن جميع طبعات الكتاب السابقة - ومنها طبعة الدكتور إحسان عباس - اعتمدت على طبعة الكتاب الأولى التي أصدرها المستشرق: د. ك. بتروف (ليدن: ١٩١٤)، من غير رجوع إلى النسخة الخطية!!!

الحديث والسُّنَّة[١]، وقد عبّر شيخ الإسلام ابن تيمية النُّميريُّ[٢] ـ رحمه الله ـ عن هذا فقال:

«... وكذلك أبو محمَّدٍ ابنُ حزمٍ؛ فإنَّه يُستحمَدُ بموافقة السُّنَّة والحديث، لكونه يُثبِتُ الأحاديثَ الصَّحيحة، ويعظِّم السَّلف وأئمَّة الحديث، ... لكنْ قد خالطَ من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصِّفات[٣] ما صرفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم في ذلك، ... وبمثل هذا صار يذمُّه مَن يذمه من الفقهاء والمتكلِّمين وعلماء الحديث؛ باتباعه لظاهرٍ لا باطنَ له، كما نفى المعاني في الأمر والنَّهي والاشتقاق، وكما نفى خرق العادات ونحوه من عبادات القلوب، مضموناً إلى ما في كلامه من الوقيعة في الأكابر، والإسراف في نفي المعاني، ودعوى متابعة الظَّاهر. وإن كان له من الإيمان، والدِّين، والعلوم الواسعة الكثيرة؛ ما لا يدفعه إلّا مكابرٌ، ويوجد في كتبه من كثرة الاطِّلاع على الأقوال، والمعرفة بالأحوال، والتَّعظيم لدعائم الإسلام، ولجانب الرِّسالة؛ ما لا يجتمع مثله لغيره. فالمسألة التي يكون فيها حديثٌ يكون جانبه

(١) راجع تقرير هذا في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: ١٠/٤ ـ ٢٣.

(٢) لا يغيبنَّ عنك أنَّ نسب آل تيمية ينتهي إلى قبيلة بني نُمير، وهي من القبائل العربية المشهورة، وقد صرَّح بهذا الحافظُ ابن ناصر الدِّين الدِّمشقيُّ (٨٤٢هـ) في كتابه: «التبيان لبديعة البيان» (مخطوط)، والقاضي نور الدِّين محمود العدويُّ الصَّالحيُّ الزُّوركاريُّ في كتابه: «الزِّيارات بدمشق» (ص: ٩٤، رقم: ٩٠)، ويُنظر مقدمة الحلواني وشودري لـ: «الصارم المسلول»، رمادي للنشر ودار ابن حزم ١٩٩٧.

(٣) قلت: وغيرها.

فيها ظاهر التَّرجيح، وله من التَّمييز بين الصَّحيح والضَّعيف، والمعرفة بأقوال السَّلف؛ ما لا يكادُ يقع مثله لغيره من الفقهاء»[١].

فهذه النَّظرة العادلة المنصفة قائمةٌ على اعتبار النِّسبيَّة في نصرة السُّنَّة والحديث، وليس على اعتبار الإسلام المُجْمَل؛ كما في بعض المناهج الجديدة في تقييم الرجال. وقد عبّر الإمام الذهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن هذا ـ أيضاً ـ فقال:

«**ولي ـ أنا ـ ميْلٌ إلى أبي محمَّدٍ؛ لمحبَّته في الحديث الصَّحيح، ومعرفته به**، وإن كنت لا أوافقه في كثيرٍ ممَّا يقوله في الرِّجال والعلل، والمسائل البشعة في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير ما مسألةٍ، ولكن لا أكفِّره، ولا أضلِّله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخْضَعُ لفرط ذكائه، وسَعة علومه»[٢].

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، وصلَّى الله على محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

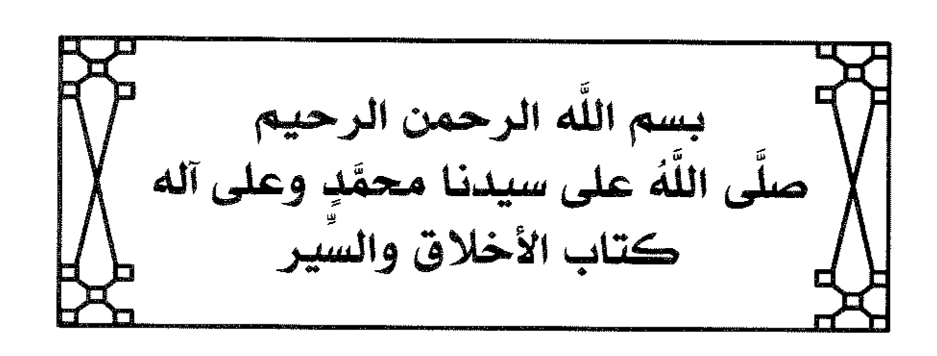
فوطنبورغ ٢٠/٤/١٤٢٠هـ

وكتبه؛

عبدالحق التركماني

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/٤ ـ ٢٠؛ باختصار.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠١/١٨ ـ ٢٠٢.



قال أبو محمَّد عليُّ بن أحمد [بن سعيد] بن حَزْمٍ [الفَقِيهُ الأَنْدَلسيُّ] رضي الله عنه:

[١] الحَمْد لله علىٰ عظيم مِنَنِهِ، وصلَّىٰ الله علىٰ محمَّدٍ؛ عبده، وخاتم أنبيائه ورسله، وسلَّم تسليماً. وأبْرأ إلَيه - تعالىٰ - من الحَول والقوَّةِ، وأستعينه علىٰ كلِّ ما يَعْصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره[١]، ويُخلِّصُ في الأخرىٰ من كلِّ هَوْلٍ وَمَضِيقٍ.

[٢] أَمَّا بعد: فإنِّي جمعتُ في كتابي هذا معانيَ كثيرةً، أفادنيها واهبُ التَّمييز - تعالىٰ - بمرور الأيام، وتعاقب الأحوال، بما منحني - عزَّ وجلَّ - من التَّهَمُّمِ[٢] بتصاريف الزَّمان، والإشراف علىٰ أحواله، حتَّىٰ أنفقت في ذلك أَكثَرَ عُمُري، وآثرت تقييد ذلك

(١) في الأصل: (والمكرهة)، وما أثبتناه فمن النسخ الأخرىٰ.
(٢) تهمَّمَ الشيءَ: طلبه، وتحسَّسَهُ. والتَّهمُّم؛ مصدر منه.

بالمطالعة له، والفكرة فيه؛ علىٰ جميع اللذاتِ التي تَميل إليها أكثرُ النُّفوس، وعلىٰ الازدياد في فضول المال. وزَمَمْتُ[1] كلَّ ما سَبَرتُ[2] من ذلك بالكتاب[3]، لينفع الله ـ تعالىٰ ـ [به] من شاءَ من عباده، مِمَّن يصل إليه ما أتعبتُ فيه نفسي، وجَهَدْتُها فيه، وأطلت فيه فكري، فيأخذه عفواً، وأهديته إليه هنيئاً[4]، فيكون ذلك أفضلَ له من كنوز المال، وعَقْد الأملاك؛ إذا تدبَّرَهُ، ويَسَّره الله ـ تعالى ـ لاسْتِعْماله.

وأنا راجٍ من الله ـ تعالىٰ ـ في ذلك أعظمَ الأجر؛ لِنِيَّتي في نَفْعِ عباده، وإصلاحِ ما فسد مِنْ أخلاقهم، ومداواة عِلَلِ نفوسهم، وبالله أَستَعِينُ، [حَسْبُنا الله ـ تعالىٰ ـ ونعم الوكيل][5].



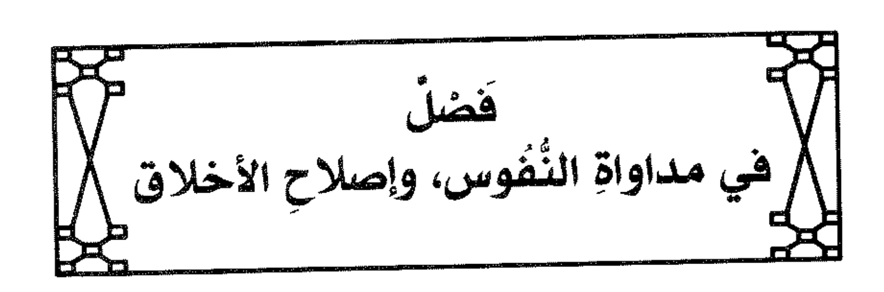
(١) زمَّ الشيءَ فانزمَّ: شدَّهُ. والبعيرَ: خَطَمَهُ. كذا في: «القاموس» و«اللسان» مادة: (زمم). فيكون المعنىٰ ـ ضمن السياق ـ: قيّدتُ. وعلّق الدكتور الطاهر أحمد مكي ـ هنا ـ بقوله: زمَّ فلانٌ كلمته: جعل لها من الصَّواب غرضاً يرمي إليه. قلتُ: لم يظهر لي وجه استعمال هذه الكلمة بهذا المعنىٰ الذي ذكره الدكتور، وعلىٰ فرض صحته فإنّه لا يتوافق مع السياق، والله أعلم.

(٢) أي: خبرتُ وحَزَرتُ. والسَّبر: التجربة، واستخراج كُنْهِ الأمر.

(٣) في النسخ الأخرىٰ: (بهذا الكتاب).

(٤) في (ب): (هَذْياً).

(٥) زيادة من (ب).



فَصْلٌ
في مداواةِ النُّفُوس، وإصلاحِ الأخلاق

[٣] لذَّةُ العاقل بتَمْييزه، ولذَّة العالم بعِلْمِه، ولذَّةُ الحكيم بحِكْمتِه، ولذَّة المُجْتهدِ للّه ـ تعالىٰ ـ باجْتهاده، أَعظمُ مِنْ لذَّة الآكل بأكله، والشَّاربِ بشربه، والواطىء بوَطْئه، والكاسب بكَسْبه، واللَّاعب بلَعْبه، والآمرِ بأَمْرِه. وبرهانُ ذلك: أنَّ الحكيمَ، والعالِمَ، والعاقل، والعامل[١]؛ واجدونَ لسائر اللذاتِ الَّتي سمَّيْنا كما يَجدها المُنْهمكُ فيها، ويُحِسُّونها كما يُحِسُّها المُقْبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلبَ الفضائل عليها. وإنَّما يَحكم في الشَّيْئَيْنِ من عرفهما، لا من عرفَ أحدهما، ولم يَعْرفِ الآخرَ.

[٤] إذا تعقَّبتَ الأمور ـ كلَّها ـ فَسَدَتْ عليك، وانتهَيْتَ في آخرِ فِكْرتك باضمحلال جميع أحوال الدُّنْيا إلىٰ أَنَّ الحقيقةَ إنَّما هي: العملُ للآخرة فقط. لأنَّ كلَّ أملٍ ظَفَرْتَ به فعُقْباه حُزْنٌ؛ إمَّا بذهابه عَنْكَ، وإمَّا بذهابك عنه، ولا بُدَّ من أحد هٰذَيْن السَّبيلَيْن إلا العمل لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فعقباه علىٰ كلِّ حالٍ سرورٌ في

(١) زاد في (ب) فقط: (ومن ذكرنا)، وإسقاطه أولىٰ كما هو ظاهر من السياق.

عاجلٍ وآجلٍ، أمّا في العاجل[1]؛ فقلّة الهمّ بما يهتمّ به النّاس، وأنّك به مُعظَّمٌ من العدوّ والصّديق، وأمّا في الآجل فالجَنّةُ.

[٥] تطلّبتُ غرضاً استوىٰ النّاس - كلُّهم - في اسْتِحْسانه، وفي طَلَبه فلم أجده إلا واحداً، وهو طَرْدُ الهمّ.

فلمّا تدبَّرْته علمتُ أنَّ النَّاسَ - كلَّهم - لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط، ولكنْ رأيتم - علىٰ اختلاف أهوائهم ومطالبهم، وتَباين هِمَمِهم وإرادتهم - لا يتحرَّكُون حركةً أصلاً إلّا فيما يرجون به طَرْده، ولا يَنْطقون بكلمةٍ أصلاً إلّا فيما يُعانون به إزاحَتَه عن أنفسهم، فَمِنْ مُخْطىءٍ وَجْهَ سبيله، ومِنْ مُقارِبٍ للْخطأ، ومِنْ مُصيبٍ، وهو الأقلُّ من النَّاس في الأقل من أموره، [والله أعلم].

فطَردُ الهمّ مذهبٌ قد اتفقت الأممُ كلُّها - مُذْ خلق اللّهُ - تعالىٰ - العالَمَ إلىٰ أن يتناهىٰ عالمُ الابتداء، ويعاقبه عالم الحساب - علىٰ أنْ لا يَعْتَمِدُوا بسعيهم شيئاً سواه، وكلُّ غرضٍ غيره ففي النّاس من لا يَسْتَحْسنه، إذْ في النَّاس مَنْ لا دِينَ له فلا يعمل للآخرة، وفي النَّاس مِنْ أهل الشَّر من لا يريد الخيرَ ولا الأمن ولا الحق، وفي النَّاس من يُؤْثِرُ الخمُول بهواه وإرادته علىٰ بُعْد الصّوْتِ[2]، وفي النَّاس من لا يريد المالَ ويُؤْثر عدمه علىٰ وجوده

(١) في الأصل: (عاجلٍ)، وما أثبتناه فمن (ب)، وفي بقية النسخ بإسقاط: (في).

(٢) في النسخ الأخرىٰ: «الصِّيت» وهذا أشهر استعمالاً، والأول جائز أيضاً. وهو الذكر والشُّهرة، ويكون في الخير والشر، كذا في «النهاية»، ولم يذكر في: «القاموس المحيط» إلا: الذّكر الحسن.

ككثيرٍ من الأنبياء - عليهم السلام -، ومَنْ تلاهم مِن الزُّهّاد، والفَلاسِفَة[1]، ومن النّاس من يُبْغضُ اللّذات بطَبْعه ويَسْتَنْقِصُ طالبها؛ كمن ذكرنا من المُؤْثرينَ فَقْدَ المال علىٰ اقتنائه، ومن النّاس من يُؤْثر الجهل علىٰ العلم؛ كأكثر من ترىٰ من العامّة، وهذه هي أغراضُ النَّاس التي لا غرض لهم سواها.

وليس في العالم مُذْ كان إلىٰ أَنْ يَتَناهىٰ أَحدٌ يستحسن الهمّ،

(١) من الخطأ الفاحش ذكر الفلاسفة في سياق واحد مع أنبياء الله تعالى، غير أنه يمكن الاعتذار لابن حزم رحمه الله؛ أنه فعل ذلك بجامع اشتراكهم في عدم إرادة المال، وإيثارهم عدمه علىٰ وجوده، وهذا ممّا لا يسلّم به له، بل هو مُنتقد من وجهين:

الأول: إن القول بأن كثيراً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤثرون عدم المال علىٰ وجوده؛ زعمٌ باطل لا يسنده برهان نقليّ صحيح. وإذا كان نبينا ﷺ هو خير الرسل وأفضلهم وخاتمهم؛ فإنّ المعروف من سيرته الكريمة أنه كان يؤثر قليل المال الصالح النافع المُغْني، علىٰ كثيره المُلْهي، ولم يكن يؤثر عدمه علىٰ وجوده، وفرق كبير بين الأمرين والحالين. وقد كان ﷺ يسأل ربّه - عزّ وجلّ - الغنىٰ (رواه مسلم: ٢٧٢١)، والبركة في الرّزق (صحيح الجامع الصغير: ١٢٦٥)، والبَسْطَ فيه (صحيح الأدب المفرد: ٥٣٨)، ويعوذ به تعالى من الفقر (صحيح الجامع: ١٢٨٥) وقال ﷺ لعَمْرو بن العاص رضي الله عنه: «يا عَمْرو! نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للمَرْءِ الصَّالح» (صحيح الأدب المفرد: ٢٢٩).

الثاني: إن زهد الفلاسفة مخالف لزهد الأنبياء عليهم السلام في مبادئه وبواعثه ومقاصده وغاياته، فإن الأنبياء زهدوا تحقيقاً للعبودية لله تعالىٰ، وتفرّغاً للقيام بواجباتها وحقوقها، واهتماماً بأمر الآخرة. أما الفلاسفة فإن كان منهم من زهد؛ فإنما زهد لظنّه أن العلوم والفضائل تنال بالتقشّف والرياضة والتصوّف الهندي، لا باتّباع الرُّسل، فلم يكن زهدهم إلّا مظهراً من مظاهر انحرافاتهم الفكرية، وأمراضهم النفسية، وصراعاتهم الداخلية، وشذوذاتهم السلوكية!

نعم: لا يمكن إلزام ابن حزم بإيراد هذا الوجه الثاني علىٰ كلامه، لأن مجرد ذكر اشتراك الفلاسفة مع الأنبياء في أمر لا يقتضي الإقرار باشتراكهم معهم في أسبابه ومقاصده. وعلىٰ كلّ حال فإنّ مقتضىٰ التأدّب مع أنبياء الله ورسله، هو الإعراض التّام عن ذكر الفلاسفة معهم في سياق واحد.

ولا يريد طرده[1] عن نفسه!

فلمَّا استقرَّ في نفسي هذا العِلْمُ الرَّفيعُ، وانكشف لي هذا السِّرُّ العجيبُ، وأنار الله ـ تعالىٰ ـ لفكري هذا الكَنْزَ العظيم؛ بحَثْتُ عن سبيلٍ مُوصلةٍ علىٰ الحقيقة إلىٰ طَرْدِ الهمِّ الذي هو المطلوب النَّفِيسُ الذي اتَّفق جميع نوع الإنسان[2] ـ الجاهل منهم والعالم، والصَّالح والطَّالح ـ علىٰ السَّعي له، فلم أجدها إلَّا التَّوجُّهَ إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بالعَمَلِ للآخرة، وإلَّا فإنَّما طلب الصِّيتَ[3] من طَلَبه؛ ليطردَ به عن نفسه همَّ الاستعلاءِ عليها، وإنَّما طلبَ اللذاتِ من طلبها؛ ليطردَ بها عن نفسه همَّ فَوْتها، وإنَّما طلب العِلْم من طلبه؛ ليطرد به [عن نفسه] همَّ الجهل، وإنَّما هشَّ إلىٰ سماع الأخبار، ومُحادَثة النَّاس مَنْ يطلب ذلك؛ ليطرد بها عن نفسه هَمَّ التَّوحُّدِ، ومَغِيبِ أحوالِ العالم عنه، وإنَّما أكل مَنْ أكل، وشَرِبَ من شرب، وَنَكَحَ مَنْ نكح، ولَبِسَ من لبس، ولَعِبَ من لعب، واكْتَنَّ من اكْتَنَّ[4]، ورَكِبَ من ركب،

(١) في النسخ الأخرىٰ: (إلَّا طَرْحه)، وما في الأصل هو الصَّواب.

(٢) في النسخ الأخرىٰ: (أنواع الإنسان)، وهذا خطأ وتحريف، سببه ظنُّ النسَّاخ أن المقصود بالنوع ـ هنا ـ ما سيأتي ذكره من «الجاهل والعالم، والصَّالح والطَّالح»، وهذا فهم خاطىء، بل المقصود هو تمييز نوع الإنسان عن الأنواع الأخرىٰ المشاركة له في الجنس، وهو (الحيوان)، فالحيوان (جنس)، والإنسان (نوع) مندرج تحته. وهذا اصطلاح المناطقة، وابن حزم ـ رحمه الله ـ يكتب علىٰ طريقتهم.

(٣) كذا في الأصل، وفي النسخ الأخرىٰ: (الصَّوت)، وقد ورد علىٰ العكس من هذا في المَوْضع السابق، وكلاهما جائز، لكن: (الصِّيت) أصحّ وأكثر استعمالاً.

(٤) أي: استتر. وفي النسخ الأخرىٰ: (اكْتنز من اكتنز)، وما في الأصل أكثر مناسبة للسياق.

ومشىٰ من مشى، وتودَّع من تودَّع؛ ليطردوا عن أنفسهم همَّ أضْداد هذه الأفعال، وسائِر الهُمُوم.

وفي كلِّ ما ذكرنا لِمَنْ تدبَّرَهُ همومٌ حادثةٌ لا بُدَّ منها؛ من عوارضَ تعرض في خلالها، وتعذُّرِ ما يتعذَّر منها، وذهاب ما وُجِدَ منها، والعجز عنه ببعض الآفات الكائنة، وأيضاً نتائجُ سوءٍ تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كلِّ ذلك؛ من خوف مُنافسٍ، وطَعْنِ[1] حاسدٍ، أو اختلاس راغبٍ، أو اقتناء عدوٍّ، مع الذَّمِّ والإثم، وغير ذلك.

ووجدتُ العملَ للآخرة سالماً من كلِّ عَيْبٍ، خالصاً من كلِّ كدرٍ، موصلًا إلىٰ طرد الهمِّ علىٰ الحقيقة.

ووجدتُ العاملَ للآخرة إن يُنَلْ[2] بمكروهٍ في تلك السبيل؛ لم يهتم، بل يُسَرُّ، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عونٌ له علىٰ ما يطلب، وزائد في الغرض الذي إيَّاه يقصد. ووجدته إنْ عاقه عمَّا هو بسبيله عائِقٌ لم يَهتم، إذ ليس مُؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثِّرٍ فيما يَطْلب. ووجدته إنْ قُصِدَ بالأذىٰ سُرَّ، وإن نكبتْهُ نَكبةٌ سُرَّ، وإنْ تَعِب فيما سلك فيه سُرَّ، فهو في سرورٍ مُتَّصلٍ أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً.

فاعلم أنَّه مطلوبٌ واحدٌ وهو طرد الهمِّ، وليس له إلَّا طريقٌ

(١) في النسخ الأخرىٰ: (أو طعن).

(٢) في النسخ الأخرىٰ: (امتُحِن).

واحدٌ وهو العملُ لله ـ تعالىٰ ـ، فما عدا هذا فضلالٌ وسُخْفٌ.

[٦] لا تبذل نفسك إلَّا فيما هو أعلىٰ منها، وليس ذلك إلَّا في ذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ في دعاءٍ إلىٰ حقٍّ، وفي حِمَايةِ الحريم، وفي دَفْعِ هَوانٍ لم يوجبه عليك خالقُكَ ـ عزَّ وجلَّ ـ، وفي نَصْرِ مظلومٍ.

[٧] وباذل نفسه في عَرَضِ دنيا كبائع الياقوت بالحصىٰ.

[٨] لا مُروءَةَ لمَنْ لا دينَ له.

[٩] العاقلُ لا يرىٰ لنفسه ثمناً إلَّا الجنَّة.

[١٠] لإبليسَ في ذمِّ الرِّياءِ حِبالَةٌ[1]؛ وذلك أنَّه رُبَّ ممتنعٍ من فعلِ خَيْرٍ خوفَ أنْ يُظَنَّ به الرِّياءُ. [فإذا أَطْرقكَ منه هذا؛ فامض علىٰ فعلك، فهو شديدُ الألمِ عليه][2].

[١١][3] **بابٌ عظيمٌ** من أبواب العقل والرَّاحة؛ وهو اطِّراحُ المبالاة بكلام النَّاس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ، بل هذا بابُ العقل كلِّه، والرَّاحة كلِّها.

[١٢] مَنْ قدَّر أنَّه يسلم من طعن النَّاس، وعَيْبِهم فهو مجنونٌ.

[١٣] مَنْ حقَّق النَّظر، وراضَ نفسه علىٰ السُّكون إلىٰ

(١) الحبالة: ما يُصاد بها من أي شيء كان.
(٢) زيادة من (ب) فقط.
(٣) هذه الفقرة أشكلت علىٰ الطابعين، فجعلها بعضهم عنوان فصل، وعدّها آخرون فقرةً ضمن السياق، وهذا موضع اجتهادٍ ونظر، وقد كتب ناسخ الأصل: (باب عظيم) بخطٍّ كبير متميز.

الحقائق ـ وإنْ آلمتها في أوّل صدْمةٍ ـ كان اغتباطه بذمِّ النّاس إيّاه أشدَّ وأكثرَ من اغتباطه بمدحهم إيّاه.

لأنَّ مدحهم إيَّاه إن كان بحقٍّ وبلَغه مدحهم له أسرىٰ ذلك فيه العُجب، فأفسدَ بذلك فضائله، وإنْ كان بباطلٍ فبلغه فسَّره فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقصٌ شديدٌ.

وأمَّا ذمُّ النَّاس إيَّاه، فإن كان بحقٍّ فبلغه؛ فَرُبَّما كان ذلك سبباً إلىٰ تَجنُّبِه ما يعاب عليه، وهذا حظٌّ عظيم؛ لا يزهد فيه إلَّا ناقصٌ، وإنْ كانَ بباطلٍ فبلغه فصَبَرَ؛ اكتسب فضلًا زائداً بالحِلْم والصَّبْر، وكان مع ذلك غانماً لأنَّه يأخذ حسناتِ من ذمَّه بالباطل، فيحظىٰ بها في دار الجزاء، أحوجَ ما يكون إلىٰ النَّجاة بأعمالٍ لم يتعب فيها، ولا تكلَّفها، وهذا حظٌّ عَظِيمٌ[1]؛ لا يزهد فيه إلَّا مجنون.

وأمَّا إنْ لم يبلغه مَدْح الناس إياه فكلامهم وسكوتهم سواء، وليس كذلك ذمُّهُم إيَّاه لأنه غانم للأجر علىٰ كلِّ حالٍ بلغه ذمُّهم أو لم يَبْلُغه.

[١٤] ولولا قولُ رسول الله ﷺ في الثَّناءِ الحسن: «ذلك عاجِلُ بُشْرىٰ المُؤْمِنِ»[2]؛ لوجب أنْ يرغب العاقلُ في الذّم

(١) في النسخ الأخرىٰ: (رفيعٌ).
(٢) يشير إلىٰ حديث: أبي ذرٍ رضي الله عنه، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرَّجُل يعملُ العمل من الخير؛ ويحْمدُهُ (وفي رواية: ويُحبُّه) النّاس عليه؟ قال: «تلك عاجلُ بُشرىٰ المؤمن». رواه مسلم في «صحيحه» (٢٦٤٢).

بالباطل أكثر من رغبته في المدح بالحقّ، ولكن إذ جاء هذا القولُ فإنّما تكون البشرى بالحقّ لا بالباطل، فإنّما تجب البشرىٰ بما في الممْدوح لا بنَفْس المَدْح.

[١٥] ليسَ بين الفضائلِ والرَّذائل، ولا بَيْنَ الطَّاعاتِ والمعاصي؛ إلَّا نِفارُ النَّفس وأُنسها فقط، فالسعيد من أَنِسَتْ نفسه بالفضائل والطَّاعات، ونَفَرت عن الرَّذائل والمعاصي، والشَّقيُّ من أنست نفسه بالرَّذائل والمعاصي، ونفرت عن الفضائل والطَّاعات، وليس هاهنا إلَّا صُنْع الله ـ تعالىٰ ـ وحِفْظه.

[١٦] طالبُ الآخرة ـ ليفوزَ في الآخرة ـ مُتَشَبِّهٌ بالملائكة، وطالبُ الشَّر متشبه بالشَّياطين، وطالبُ الصِّيتِ والغَلَبة متشبه بالسِّباع، وطالبُ اللَّذات متشبه بالبهائم، وطالب المال ـ لعَيْنِ المال؛ لا لِيُنْفِقَهُ في الواجبات والنَّوافل المحمودة ـ أَسْقطُ وأرذل منْ أن يكون له في شيءٍ من الحيوان شَبَهٌ، ولكنَّه يُشْبه الغُدْرانَ[1] التي في الكهوف في المواضع الوَعِرةِ لا يَنْتَفع بها شيءٌ من الحيوان [إلّا ما قلَّ من الطائر، ثم يجفِّفُ الشمسُ والريحُ ما بقيَ منه، كذلك يُجتاحُ المال الذي لا يُنفق في معروفٍ][2].

فالعاقلُ لا يَغْتبطُ بصفةٍ يَفُوقه فيها؛ سَبُعٌ أو بهيمةٌ أو جمادٌ، وإنّما يغتبط بتقدُّمه في الفضيلة التي أبانه الله ـ تعالىٰ ـ بها عن

---

(١) الغُدْران، جمع: الغديرة، وهي القطعة من النبات.

(٢) زيادة من (ب) فقط، وقوله: (يُجتاحُ المال)؛ هكذا ترجّح عندي ضبطه، ويمكن أن يكون (يُحتاج)؛ كما قرأتها إيفا رياض.

السِّباع والبهائم والجمادات، وهي التَّمْييز الذي يُشارك فيه الملائكة.

فمَنْ سُرَّ بشجاعته التي يضعها في غير حقِّها للّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فليعلم أنَّ النَّمِرَ أجرأُ منه، وأن الأسدَ والذِّئب والفيل أَشْجعُ منه.

ومن سُرَّ بقوة جسمه؛ فليعلم أنَّ البغل والثَّور والفيل أقوى منه جِسْماً.

ومن سُرَّ بحمله الأثقال؛ فليعلم أنَّ الحمار أحمل منه.

ومن سُرَّ بسرعة عَدْوِه؛ فليعلم أنَّ الكلب والأرنب أسْرعُ عَدْواً منه.

ومَنْ سُرَّ بحُسْنِ صوته فليعلم أنَّ كثيراً من الطَّير أحسنُ صوتاً منه، وأنَّ أصوات المزامير ألذُّ وأطرب من صوته.

فأيُّ فخرٍ، أو أيُّ سرورٍ فيما تكون فيه هذه البهائمُ متقدِّمةً له؟!

لكنْ من قوِيَ تمييزه، واتَّسع علْمُه، وحَسُنَ عمله؛ فلْيَغْتبط بذلك فإنَّه لا يتقدَّمه في هذه الوجوه إلَّا الملائكةُ، وخيارُ النَّاس.

[١٧] قولُ اللّهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النَّازعات: ٤٠ ـ ٤١]؛ جامعٌ لكلِّ فضيلةٍ، لأنَّ نهيَ النَّفس عن الهوىٰ هو ردْعها عن الطَّبع الغضبيِّ، والطَّبع الشَّهواني، لأنَّ كليهما واقعٌ تحت

موجب الهوىٰ، فلم يبق إلَّا استعمال النَّفس للنُّطق الموضوع فيها، الذي بانتْ به عن البهائم والحشرات والسِّباع.

[١٨] قولُ رسول الله ﷺ للَّذي استوصاه: «لا تَغْضَبْ!»[١]. وأَمْرُه ـ عليه السَّلام ـ أنْ يُحِبَّ المرءُ لغَيْره ما يُحِبُّ لنفسه[٢]؛ جامعان لكلِّ فضيلةٍ، لأنَّ في نهيه عن الغَضَبِ ردعُ النَّفس ذات القوّة الغضبيَّة عن هواها، وفي أمره ـ عليه السلام ـ بأن يُحِبَّ المرء لغيره ما يحبُّ لنفسه ردعُ النفس عن القوَّة الشَّهْوانية، وجمعٌ لأزمَّة العدل الذي هو فائدةُ النّطق الموضوع في النَّفْس النَّاطقة.

[١٩] رأيتُ أكثرَ النَّاس ـ إلَّا من عَصَم اللَّه ـ تعالىٰ ـ وقليلٌ ما هم ـ يَتَعجَّلُون الشَّقاءَ والهمَّ والتَّعب لأنفسهم في الدُّنْيا، ويحْتقِبُون[٣] عظيمَ الإثم الموجب للنَّار في الآخرة بما لا يَحْظَوْنَ معه بنفعٍ أصلًا؛ من نِيَّاتٍ خبيثةٍ يَضِبُّون عليها[٤]؛ مِنْ تمنِّي الغلاء المهلك للنَّاس، وللصِّغار، ومن لا ذنب له، وتمنِّي أشدَّ البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقيناً أنَّ تلك النِّيَّاتِ الفاسدةَ لا تُعَجِّلُ لهم شيئاً مما يتمنَّوْنَه، أو يوجب كونَه، وأنهم لو صفَّوْا نِيَّاتِهم وحسَّنوها لتعجَّلُوا الرَّاحة [لأنفسهم][٥]، وتفرَّغوا بذلك لمصالحِ

(١) رواه البخاري (٦١١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روىٰ البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنسٍ، عن النبي ﷺ، قال: «لا يُؤمن أحدكم حتَّىٰ يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه».

(٣) أي: يدَّخِرون.

(٤) أي: يُضمرونها في أنفسهم. يقال: أَضبَّ علىٰ ما في نفسه، أي: سكت.

(٥) مطموس في الأصل.

أمورهم، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر في المَعاد، من غير أن يُؤخِّر ذلك شيئاً مما يريدونه، أو يمنع كونه.

فأيُّ غُبْنٍ أعظمُ من هذه الحال الَّتي نبَّهْنا عليها، وأيُّ سَعْدٍ أعظم من التي دَعَوْنا إِلَيْها؟!.

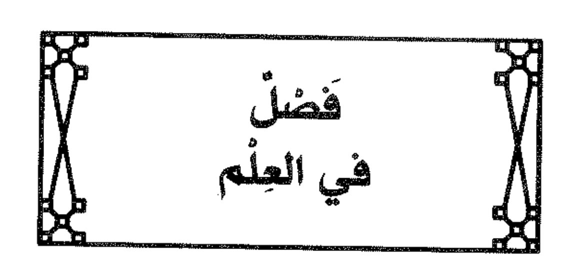
[٢٠] إذا حقَّقْت مدَّة الدنيا لم تجدها إلَّا: الآنَ؛ الذي هو فَصْلُ الزمانين فقط، وأمَّا ما مضىٰ وما لم يأت فمعدومان كما لم يكن، فمن أضلُّ مِمَّن يبيع باقياً خالداً بمدَّةٍ هي أقلُّ من كرِّ الطَّرْفِ؟!

[٢١] إذا نام المرءُ خرج عن الدُّنيا، ونسي كلَّ سرورٍ، وكلَّ حُزْنٍ، فلو رتَّب نفسه في يقظته علىٰ ذلك ـ أيضاً ـ لسَعِدَ السَّعادة التَّامَّة.

[٢٢] من أساءَ إلىٰ أهله وجيرانه فهو أسْقَطُهم، ومن كافأ من أساءَ إليه منهم فهو مِثْلُهم، ومن لم يكافئهم بإساءَتِهم فهو سَيِّدُهم، وخيرُهم، وأفضلهم[١].

❁ ❁ ❁

(١) الفقرات (١٩ ـ ٢٢) سقطت من النُّسخ الأخرىٰ.



فَصْلٌ في العِلْم

[٢٣] لَوْ لَمْ يَكُن من فضل العلم إلَّا أن الجُهَّال يهابونك ويُجِلُّونَك، وأنَّ العلماءَ يُحِبُّونك ويكرمونك لكان ذلك سبباً إلىٰ وجوب طلَبِه، فكيفَ بسائر فضائله في الدُّنْيا والآخرة؟!

ولو لم يكن من نَقْص الجهل إلَّا أنَّ صاحِبَهُ يَحْسِدُ العلماءَ، ويَغْبِطُ نظراءَهُ[1] من الجهَّال لكان ذلك سبباً إلىٰ وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدُّنْيا والآخرة؟!

[٢٤] لو لم يكن من فائدة العلم، والاشتغال به؛ إلَّا أنَّه يقطع المُشْتَغَل [بِهِ] عن الوساوس المُضْنِيَةِ، ومطارح الآمال الَّتي لا تفيد غير الهمِّ، وكفاية الأفكار المُؤْلِمَةِ للنَّفْس؛ لكان ذلك أعظمَ داعٍ إليهِ، فكيفَ وله من الفضائل ما يطول ذكره، ومن أقلِّها ما ذكرنا ممَّا يحصل عليه طالب العلم، وفي مثله أتعبَ ضُعفاءُ الملوك أنفسهم فتشاغلوا عمَّا ذكرنا بالشِّطْرَنْج، والنَّرْدِ، والخَمْرِ، والأغاني، وركض الدّواب في طلب الصَّيْد، وسائر الفُضُول التي

(١) في النسخ الأخرىٰ: (ويغبطه نظراؤه).

تعود بالمضرّة في الدُّنيا والآخرة، وأمّا فائدةً فلا فائدة.

[٢٥] لو تدبَّر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذُّلّ بتسلُّط الجُهّال، ومن الهمّ بمَغِيب الحقائق عنه، ومن الغِبْطَةِ بما قد بانَ له وجهه من الأمور الخَفِيَّةِ[١] عن غيره؛ لزاد حمْدَ اللهِ[٢] ـ عزَّ وجلَّ ـ وغِبْطَةً بما لديه من العلم، ورغبةً في المزيد منه.

[٢٦] مَنْ شغل نفسه بأدنىٰ العلوم، وترك أعلاها ـ وهو قادر عليه ـ كان كزارع الذرة في الأرض الَّتي يجود فيها البُرُّ، وكغارس الشَّعْراءِ[٣] حيثُ تَزْكو النَّخْل والزَّيْتون.

[٢٧] نَشْرُ العلم عند من ليس من أهله مُفْسِدٌ لهم، كإطعامك العسل والحلواء من به احْتِراقٌ وحُمَّىٰ، أو كتَشْمِيمِكَ المسْك والعنبر لمن به صُداعٌ من احتدام الصَّفْراءِ[٤].

(١) في الأصل: (الحقيقيّة)، وما أثبتناه فمن النسخ الأخرىٰ.
(٢) كذا في الأصل، وفي النسخ الأخرىٰ: (حَمْداً للّه).
(٣) شجرةٌ من الحَمْض.
(٤) زعم الدكتور مكّي ـ مقلِّداً لغيره! ـ أنَّ ابنَ حزمٍ يلتقي في هذا الاتجاه مع المذهب الارستقراطي عند فلاسفة اليونان، الذين يَجعلون العلم وقفاً علىٰ طبقةٍ مختارةٍ متميّزةٍ.
قلتُ: وهذا باطلٌ، بل ما أشار إليه ابن حزم منهج إسلاميٌّ أصيلٌ، مبنيٌّ علىٰ قاعدةٍ سُنّيّةٍ سلفيّةٍ، وهي لزوم سبيل الحكمة في التعليم، والتّدرج فيه، والفقه في حال المخاطبين ومدىٰ قدرتهم علىٰ فهم الخطاب العلمي، واستيعاب أصوله وفروعه، وليس اعتقاداً ـ كما عند الفلاسفة ـ بأنَّ العلم: وقْفٌ علىٰ طبقةٍ مختارةٍ متميّزةٍ (!). قال الإمامُ البخاريُّ في كتاب العلم من: «صحيحه»: بابٌ: من خصّ بالعلم قوماً دون قومٍ كراهية أنْ لا يفهموا. وقال عليٌّ: حدّثوا النّاس بما

[٢٨] الباخلُ بالعلم ألأمُ من الباخل بالمال، لأنَّ الباخل بالمال أشفقَ من فناء ما بيده، والباخل بالعلم بَخِل بما لا يفنىٰ علىٰ النَّفَقة، ولا يفارقه مع البذل.

[٢٩] من مَالَ بطبعه إلى علمٍ ما ـ وإنْ كانَ أدنىٰ من غيره ـ فلا يَشْغَلْها بسواه، فيكون كغارس النَّارَجيل[١] بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا يُنْجِبُ.

[٣٠] أجلُّ العلوم ما قَرَّبك من خالقِكَ ـ تعالىٰ ـ، وما أعانَكَ علىٰ الوصول إلىٰ رضاه.

[٣١] انْظُرْ في المال والحال والصِّحَّةِ إلىٰ من دُونك، وانظر في الدِّين، والعلم، والفضائل إلىٰ من فَوْقَكَ.

[٣٢] العلوم الغامضة كالدَّواء القويِّ، يُصْلح الأجسادَ القويّة، ويُهلك الأجسادَ الضَّعِيفَة، وكذلك العلوم الغامضة تَزيدُ العقل القويّ جَودةً، وتُصَفِّيه من كلِّ آفةٍ، وتُهْلك ذا العقلِ الضَّعِيفِ.

[٣٣] مِن الغَوص علىٰ الجنون ما لَوْ غاصه صاحبه علىٰ العقل لكان أَحْكم من الحسن البصريِّ[٢]، وأفلاطون ....

= يعرفون؛ أتحِبُّون أن يكذَّب الله ورسوله؟! ثمَّ ساق سنده: (١٢٧). وروىٰ مسلم في: «المقدِّمة» (٥) عن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: ما أنت بمُحَدِّثٍ قوماً حديثاً لا تَبْلُغُهُ عقولهم؛ إلَّا كانَ لبعضهم فتنةً.
(١) النّارجيل: جوز الهند، واحدته: النَّارَجيلة، والمقصود هنا شجرته، وهي من فصيلة النخل.
(٢) هو: الحسن بن أبي الحسن؛ يسار البصري، الفقيه، الزاهد، الواعظ، المشهور، من التّابعين، توفي سنة (١١٠هـ).

الأثينيّ[١]، وبُزُرْجمِهْر الفارسيّ[٢].

[٣٤] وقف العقلُ عند أنّه لا ينفعُ إنْ ام يُؤيّد بتوفيقٍ في الدّين، أو بِسَعْدٍ في الدُّنيا.

[٣٥][٣] لا تضرَّ بنفسك في أن تجرِّب بها الآراءَ الفاسدة لتُريَ المشيرَ بها فسادَها فتَهْلَكَ، فإنَّ ملامة ذي الرأي الفاسد لكَ علىٰ مخالفته ـ وأنت ناجٍ من المكاره ـ خيرٌ لك من أن يعذُرك، ويندم كلاكُما، وأنت قد حَصَلْتَ في المكاره.

[٣٦] إيّاك وأنْ تُسِرَّ غيرك بما تسوءُ به نفسَكَ فيما لم تُوجِبْه عليك شريعةٌ، أو فَضِيلةٌ.

---

(١) أفلاطون: فيلسوف يوناني، ولد في أثينا عام (٤٢٧ق.م)، وتتلمذ علىٰ سقراط، وصحبه حتىٰ النهاية، وخرج إلىٰ مصر وأمضىٰ فيها عاماً، اتصل خلاله بالمدرسة الكهنوتية في عين شمس، ثم عاد إلىٰ وطنه، وتوفي عام (٣٤٧ق.م)، وترك عدداً من المؤلفات، أشهرها: «الجمهورية»، وتتلمذ عليه أرسطوطاليس. وهؤلاء من الفلاسفة الإلٰهيّين؛ الذين أثبتوا الصّانع، وردُّوا علىٰ من قبلهم من الفلاسفة الدّهريين، والطّبيعيّين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم، وكفىٰ الله المؤمنين القتال بقتالهم، ثمّ ردّ أرسطوطاليس علىٰ أفلاطون وسقراط، ومن كان قبله من الإلٰهيين؛ ردّاً لم يقصّر فيه، حتىٰ تبرّأ عن جميعهم، إلّا أنه استبقىٰ ـ أيضاً ـ من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا، لم يوفَّق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم، وتكفير متّبعيهم من المتفلسفة الإسلاميّين؛ كابن سينا، والفارابيّ، وأمثالهما (العقيدة الأصبهانية: ١٤٥/٢).

(٢) حكيم من حكماء الفرس، وكان وزير (أبرويز) والغالب عليه، والمدبِّر لأمره، فلمّا خلا من ملكه ثلاث عشرة سنة اتّهمه بالميل إلىٰ بعض الزنادقة من الوثنية؛ فقتله. انظر: «مروج الذهب» (٢٨٦/١). وقال الوشّاء في: «الفاضل في صفة الأدب الكامل»: وتفسير بزرجمهر: كثير العقل.

(٣) هذه الفقرة والتي تليها من الأصل فقط.

[٣٧] وقف العِلْمُ عند الجهْل بصفات الباريء ـ عزّ وجلّ ـ[١].

[٣٨] لا آفةَ أضرّ علىٰ العلوم وأهلها من الدُّخلاء فيها؛ وهم من غير أهلها، فإنّهم يجهلون ويظنون أنّهم يعلمون، ويُفسدون ويُقدِّرُون أنّهم يُصْلحون.

[٣٩] من أراد خيرَ الآخرةِ، وحِكْمةَ الدنيا، وعَدْلَ السِّيرة، والاحتواءَ علىٰ محاسنِ الأخلاق ـ كلِّها ـ، واستحقاقَ الفضائل بأَسْرها؛ فَلْيَقْتَدِ بمُحمَّدٍ رسول الله ﷺ ولْيَسْتعمل أخلاقه، وسِيَرَهُ ـ ما أمْكَنَهُ ـ أعاننا الله علىٰ الاتِّسَاءِ به، بمَنِّه، آمين.

[٤٠] غاظَني أهلُ الجهل مرَّتين من عُمُري:

إحداهما: بكلامهم فيما لا يُحْسِنُونَهُ أيَّام جهلي.

والثانية: بسكوتهم عن الكلام بحَضْرتي [أيَّام عِلْمي].

فهم أبداً ساكتون عمَّا ينفعهم، ناطقونَ فيما يَضرُّهم.

وسرَّني أهلُ العلم مرَّتين من عُمُري:

---

(١) يجب تقييد هذا بالجهل بكيفيَّة صفات ربّ العالمين، وحقيقتها علىٰ الوجه الذي هي عليه في نفس الأمر، فهذا ممَّا لا سبيل إلىٰ العلم به وإدراكه، بل نفوّضه ولا نخوض فيه. أمّا العلم بإثبات صفاته ـ عزَّ وجلَّ ـ وكونها موجودة حقيقة؛ فهذا ممّا لا نجهله، بل نعلمه، ونوقن به، ونثبته، بالفطرة، والشرع، والعقل، وآثارها العظيمة في الآفاق والأنفس. فهذا أشرف العلوم وأعظمها، وهو من أصول التوحيد، ومن أركان عقيدة الإسلام، وقد قام الرّسل ـ صلوات الله تعالىٰ عليهم ـ ببيانه أوضح بيانٍ وأجلّه، وكيف يمكن أنْ يستقرّ الإيمان في قلب العبد، وتصلح حياته؛ مع جهله بربّه وخالقه وسيّده، وأسمائه وصفاته؟!

إحداهما: بتعليمي أيَّام جهلي.

والثانية: بمذاكرتي أيَّام علمي.

[٤١] من فضل العلم والزُّهد في الدُّنيا أنَّهما لا يُؤتيهما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلَّا أهلَهما وَمُسْتِحقَّهما، ومن نقص علوّ أحوال الدُّنيا من المال والصَّوْتِ أنَّ أكثر ما يقعان في[1] غير أهلهما، وفي مَنْ لا يستحِقُّهما.

[٤٢] مَنْ طلب الفضائلَ لم يُسايِرْ إلَّا أهلها، ولم يُرافِقْ في تلك الطَّريق إلَّا أكرم صديقٍ من أهل المواساة، والبِرِّ، والصِّدق، وحُسْنَ العِشْرة[2]، والصَّبْرِ، والوفاء، والأمانة، والحِلْم، وصفاء الضمائر، وصِحَّة المودَّة.

ومن طلب الجاه، والمال، واللَّذاتِ لم يُسَاير إلَّا أمثالَ الكلاب الكَلِبَةِ، والثَّعالب الخَلِبَةِ[3]، ولم يُرافق في تلك الطَّريق إلّا كلّ عدوٍّ [في][4] المعتقد، خبيثِ الطَّبيعة.

[٤٣] منفعةُ العلم في استعمال الفضائل عظيمةٌ، وهو أنَّه يُعلِّمُ حُسْنَ الفضائل؛ فيأتيها ـ ولو في النُّدْرة ـ، ويُعَلِّمُ قُبْحَ الرذائل؛ فيجتنبها ـ ولو في الندرة ـ، ويُسمعُ الثَّناءَ الحسنَ فيرغب في مِثْله، والثناءَ الرَّديَّ فينفر منه، فعلىٰ هذه المقدِّمات يجبُ أن

(١) في النسخ الأخرىٰ: (ففي).

(٢) في النسخ الأخرىٰ: (وكرم)، وفيها إلّا (ب): (العشيرة).

(٣) أي: الخادعة.

(٤) زيادة من (ب).

يكون للعلم حِصَّة في كلِّ فضيلةٍ، وللجهل حِصَّةٌ في كلِّ رذيلةٍ.

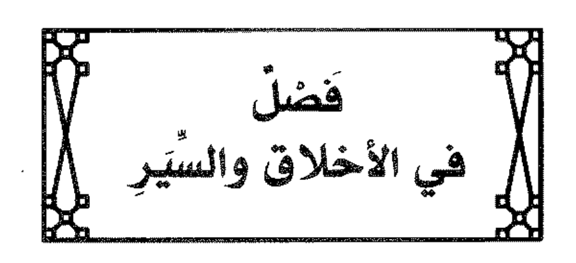
ولا يأتي الفضائل مَنْ لم يتعلَّم العلمَ؛ إلَّا صافي الطبع جداً، فاضل التَّركيب، وهذه منزلةٌ خُصَّ بها النَّبيُّون ـ عليهم السلام ـ، لأنَّ اللَّه ـ تعالىٰ ـ علَّمهم الخير ـ كلَّه ـ دون أن يتعلَّمُوهُ من النَّاسِ.

وقد رأيتُ مِن غُمَارِ العامَّةِ[1] من يجري من الاعتدال، وحميد الأخلاق؛ إلىٰ ما لا يتقدَّمُهُ فيه حكيمٌ عالمٌ رائِضٌ لنفسه، ولكنَّه قليلٌ جداً، ورأيتُ مِمَّن طالع العلوم، وعرف عهودَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ووصايا الحكماءِ؛ وهو لا يتقدَّمه في خُبْث السِّيرة، وفسادِ العلانية والسَّريرة؛ شِرارُ الخَلْق، وهذا كثيرٌ جداً، فعلمتُ أنَّها مواهبُ وحِرمانٌ من الله ـ تعالىٰ ـ[2].

❀ ❀ ❀

(١) أي: من جماعتهم ولفيفهم.

(٢) من قوله: (وقد رأيتُ...) إلىٰ هنا، من الأصل فقط.



فَصْلٌ في الأخلاق والسِّيَرِ

[٤٤] احرص علىٰ أنْ تُوصفَ بسلامة الجانب، وتَحَفَّظْ من أن تُوصَفَ بالدَّهاءِ؛ فيكثرَ المُتَحَفِّظُونَ منك، حتَّىٰ ربَّما أضرَّ ذلك بك، وربَّما قتلك.

[٤٥] وطِّنْ نفسك علىٰ ما تكره؛ يَقِلُّ همُّكَ إذا أتاك، ولم تستضِرْ بتوطينك أولًا، ويَعْظُم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تُحِبُّ ممَّا لم تكن قَدَّرْتَهُ.

[٤٦] إذا تكاثَرَت الهُمُومُ؛ سَقَطَتْ كلُّها.

[٤٧] الغادر يفي للمجدود[١]، والوفيُّ يغدر بالمحدود، والسعيدُ ـ كلُّ السَّعيد ـ في دنياه؛ مَنْ لم يضطَّره الزمانُ إلىٰ اختبار الإخوان.

---

(١) المجدود: المحظوظ، يقال: رجلٌ جُدٌّ، أي: مجدود عظيم الجَدّ، والجَدُّ معناه: البخت والحظُّ في الدنيا.

وهذا ما ظهر لي في قراءة هذه الكلمة في النسخة الأصل، وقرأتها إيقا رياض بالحاء المهملة، وأثبتُّ في النّص ما في النسخ الأخرىٰ، وهو: (بالمحدود).

[٤٨] لا تفكّر في من يُؤذيك فإنّك إن كنت مقبلاً فهو هالك، وسعْدُك يكفيك، وإنْ كنت مُدبراً فكلّ أحدٍ يؤذيك.

[٤٩] طوبىٰ لمن علم من عيوب نفسه أكثر ممّا يعلم النّاسُ منها.

[٥٠] الصَّبرُ علىٰ الجفاء ينقسم ثلاثةَ أقسامٍ:

فصبرٌ عن من يَقْدِرُ عليك، ولا تقدر عليه.

وصبرٌ عن من تقدر عليه، ولا يقدر عليك.

وصبرٌ عن من لا تقدر عليه، ولا يقدر عليك.

فالأوّلُ: ذُلٌّ ومهانة، وليس من الفضائل، والرأيُ لمن خَشِيَ ما هو أشدُّ مِمَّا يصبر عليه المُتَاركةُ والمُبَاعدة.

والثاني: فَضْلٌ وبِرٌّ، وهو الحِلْمُ علىٰ الحقيقة، وهو الّذي يوصف به الفضلاء.

والثالث: ينقسم قِسْمَين:

أَمَّا إنْ كان الجفاءُ مِمَّن لم يقع منه إلَّا علىٰ سبيل الوَهْلة، ويعلم قُبْح ما أتىٰ به، ويندم عليه؛ فالصَّبْرُ عنه فضل وفَرْضٌ، وهو حِلْمٌ علىٰ الحقيقة.

وأمَّا من كان لا يَدْري مقدار نفسه، وَيظُنُّ لها حَقاً يستطيل به، ولا يندم علىٰ ما سلف منه؛ فالصَّبْرُ عنه ذُلٌّ للصّابر، وإفسادٌ

للمصبور عليه، لأنّه يزيد استشراءً[١]، والمقارضةُ[٢] له سُخفٌ، والصّواب إعلامه بأنّه كان مُمكناً أنْ ينتصر منه، وأنّه إنّما ترك ذلك استرذالاً لَهُ فقط، وصيانةً عن مراجعته، ولا يُزاد علىٰ ذلك.

وأمَّا جفاءُ السِّفْلة؛ فليسَ جزاؤُهُ إلَّا النَّكالُ وَحْدَهُ.

[٥١] من جالس النَّاس لم يَعْدم همّاً يُؤْلِم نفسه، وإثْماً يندم عليه في مَعَاده، وغَيْظاً يُنْضِجُ كَبَدَه، وذُلّاً يُنكِّسُ هِمَّته، فما الظَّنُّ بَعْدُ بمَنْ خالطهم وداخلهم. والعزُّ، والرَّاحةُ، والسُّرور، والسّلامة في الانفراد عنهم، ولكن اجْعلهم كالنَّار تَدَفَّأُ بها، ولا تُخَالِطُها[٣].

[٥٢][٤] لو لم يَكُنْ في مجالسة النَّاس إلا عَيْبان لكَفَيا:

أحدهما: الاسْتِرسالُ عند الأُنْسِ بالأسرار المُهْلِكَة القاتلة، الّتي لولا المجالسة لم يَبُحْ بها البائح.

والثاني: مواقَعَةُ الغِيبَةِ المُهْلِكَةِ في الآخرة.

فلا سبيل إلىٰ السَّلامة مِنْ هاتَيْنِ البلِيَّتَيْنِ إلَّا بالانفراد عن المجالسة جُمْلَةً.

[٥٣] لا تَحْقِر شيئاً من عمل غدٍ أن تحققه بأنْ تُعجّله

---

(١) أي: زيادةً وتفاقماً.

(٢) أي: مقابلته بمثل صنيعه من السُّوء.

(٣) زاد في (ب): (ليلة).

(٤) هذه الفقرة من الأصل فقط.

اليوم، وإنْ قلّ، فإنّ من قليل الأعمال يجتمع كثيرها، وربّما أعجز أمرها عند ذلك فبَطُلَ الكلُّ.

[٥٤] لا تَحْقِر ممّا ترجو به تثقيل ميزانك يومَ البَعْثِ أن تعجّلَهُ الآن؛ وإنْ قلَّ، فإنّه يَحطُّ عنك كثيراً، لو اجتمعَ لَقَذَفَ بك في النّار[١].

[٥٥] الوَجَعُ، والفَقْر، والنَّكْبة، والخَوْفُ؛ لا يُحِسُّ أذاها إلّا من كان فيها، ولا يعلمه من كان خارجاً عنها. وفسادُ الرأي، والإثْمُ، والعارُ؛ لا يعلم قُبْحها إلّا من كان خارجاً عنها، وليس يراه من كان داخلًا فيها.

[٥٦] الأمن، والصِّحَّة، والغِنىٰ؛ لا يعرف حقَّها إلَّا من كان خارجاً عنها، وليس يَعْرِفُهُ من كان فيها. وجودة الرأي، والفضائل، وعملُ الآخرة؛ لا يعرف فضلها إلّا من كان من أهلها، ولا يعرفه من لم يكن من أهلها.

[٥٧] أوّلُ من يزهد في الغادر من غَدَرَ له الغادر، وأوّلُ من يَمْقُتُ شاهدَ الزُّور من شَهِدَ له به، وأوّلُ من تهون الزّانيةُ في عينه الذي يزني بها.

(١) يعني: الذّنوبَ إذا اجتمعتْ علىٰ العبد؛ كما قالَ ﷺ: «إيّاكُم ومُحَقَّراتِ الذُّنوبِ! [فإنّما مَثَلُ مُحَقَّراتِ الذّنوبِ] كقوم نَزَلُوا في بَطْنِ وادٍ، فجاءَ ذا بِعُودٍ، وجاءَ ذا بعودٍ، حتّىٰ أنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وإنَّ مُحَقَّراتِ الذُّنوب متىٰ يُؤْخَذْ بها صاحِبُها؛ تُهلِكْهُ». رواه أحمد ٥/٣٣١ عن سهل بن سعدٍ ـ رضي الله عنه ـ بإسنادٍ صحيح. وما بين المعقوفتين فمن طبعة مؤسسة قرطبة (٢٢٩١٦)، و«صحيح الجامع الصغير» (٢٦٨٦).

[٥٨] ما رأينا شيئاً فسد فعاد إلىٰ صِحّته إلّا بعد لأيٍ[١]، فكيفَ بدماغٍ يتوالى عليه فسادُ السُّكر كلَّ ليلةٍ؟! وإنَّ عقلًا زيّنَ[٢] لصاحبه تَعْجِيلَ إفساده كلّ ليلةٍ؛ لعقلٌ ينبغي أنْ يُتَّهَم.

[٥٩][٣] الطَّريق تُبْرِمُ[٤]، والزَّوايا تُكْرِمُ[٥]، وكثرة المال تُرْغِبُ، وقلَّتُهُ تُقْنِعُ.

[٦٠] قد يَنْحَسُ العاقلُ بتَدْبيره، ولا يَجُوزُ أَنْ يَسْعَدَ الأحْمَقُ بتدبيره.

[٦١] لا شَيءَ أضرَّ علىٰ السُّلطان من كثرة المتفرّغين حواليْهِ، فالحازِمُ يشغلهم بما لا يَظْلِمُهُم فيه، فإنْ لم يفعل شغلُوْه بما يَظْلمُونه فيه.

[٦٢] وأمَّا مقرِّبُ أعدائه؛ فذلك قاتِلُ نفسه.

(١) اللأيُ: الإبطاء، والاحتباس، والشِّدَّة.
(٢) كذا في(ب) و (س)، وهي غير واضحة في الأصل، وقرأتها إيفا رياض: (زجر). وهذه الجملة ساقطة من (د) و (ي).
(٣) من الأصل فقط.
(٤) أي: تُضْجِر.
(٥) علّق الدكتور إحسان عبّاس هنا بقوله: هذه الفقرة تبدو دخيلة (!) وقوله: «الزوايا تكرم» لا أدري معناه، ولعله: «الروايا» أي: الإبل التي تحمل الماء وتعين علىٰ قطع الطريق. انتهىٰ. وذهب خيال الدكتور الطاهر مكي بعيداً فقال: الزوايا: جمع زاوية، وكانت في الأندلس علىٰ ما عليه الحال الآن في شمال أفريقيا، وفي صعيد مصر: مكان يضم مسجداً للصلاة، ومدرسة للتربية، ومأوىٰ لاستقبال السائرين مجاناً. انتهىٰ. قلتُ: وهذا تفسير غير مناسب، وماذا علىٰ الدكتور لو أنه قال مثلما قال الدكتور إحسان عباس: لا أدري معناه! ثمّ أورد ما يظهر له علىٰ وجه الاحتمال؟!.

[٦٣] كثرةُ وقوعِ العَيْنِ على الشَّخص يُسهِّلُ أمرَهُ ويُهوِّنُه[1].

[٦٤] التَّهويلُ بلزوم تزيٍّ[2] ما والاكْفهرارُ[3]، وقلّة الانبساط، ستائرُ؛ جعلها الجهَّالُ ـ الذين مَكَّنتهم الدُّنيا ـ أمام جهْلِهم.

[٦٥] لا يَغْترُّ العاقل بصداقةٍ حادثةٍ له أيَّامَ دولته، فكلُّ أحدٍ صديقُهُ يومئِذٍ.

[٦٦] اجهد في أن تستعين في أمورك بمن يُريد منها لنفسه مِثْل ما تُريدُ لنفسك، ولا تستعن فيها بمن حَظُّه من غيرك كحَظِّه منك.

[٦٧] لا تُجِبْ عن كلامٍ نُقِلَ إليك عن قائلٍ حتَّىٰ تُوقِنَ أنَّه قاله، فإنَّ من نقل إليك كَذِباً رجع مِنْ عندك بحقٍّ[4].

[٦٨] ثِقْ بالمُتَدَيِّن ـ وإنْ كان على غير دِينِكَ ـ، ولا تَثِقْ بالمُسْتَخِفِّ ـ وإنْ أظهر أنَّه على دينك ـ.

[٦٩] مَنْ استخفَّ بحُرُمات الله ـ تعالىٰ ـ فلا تَأْمَنْه علىٰ شيءٍ ممَّا تُشْفِقُ عليه.

---

(١) يريد أن الإنسانَ إذا أكثر من مخالطة الناس، ومن الانبساط الزائد إليهم؛ ذهبت هيبته، وملّوه. وقريب من هذا المعنىٰ؛ قول عبدالله بن عمروٍ ـ رضي الله عنه ـ: كنّا نسمع في الجاهلية الجهلاء: «زُرْ غِبّاً؛ تَزْدَدْ حُبّاً»؛ حتّى سَمِعْتُها من رسول الله ﷺ. رواه الطبرانيُّ في: «المعجم الكبير» (قطعة من الجزء: ١٧٣/١٣، بتحقيق شيخنا حمدي السلفي)، والخطيب في: «التاريخ» ٩/٣٠٠؛ بإسنادٍ حسنٍ. والحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده الكثيرة؛ لذا أورده الألباني في: «صحيح الجامع الصغير» (٣٥٦٨).

(٢) في النسخ الأخرىٰ (زيّ).

(٣) أي: العبوس. والمكْفهرُّ: المتعبِّسُ.

(٤) الفقرات: (٦٥ ـ ٦٧) من الأصل و (ب) فقط.

[٧٠] وجدتُ المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم. (هذا شيءٌ طالَ اختباري إيّاه، ولم أجدْ قطُّ علىٰ طُولِ التَّجْربة سواه، فأَعْيَتْني معرفةُ العِلَّة في ذلك حتّىٰ قَدَّرْتُ أنَّها)[1] طبيعةٌ في البشر.

[٧١] مِنْ قبيحِ الظُّلم؛ الإنكارُ علىٰ من أكثر الإساءة إذا أحْسَنَ في النُّدْرَةِ.

[٧٢] مَن استراحَ من عدوٍّ واحدٍ؛ حَدَثَ له أعداء كثيرةٌ.

[٧٣] أشبه ما رأيتُ بالدُّنيا خيالُ الظِّلِّ، وهو تماثِيلُ مركّبةٌ علىٰ مَطْحَنَةِ خَشَبٍ، تُدار بسرعةٍ، فتغيبُ طائِفَةٌ، وتَبْدُو أخرىٰ[2].

---

(١) ما بين القوسين من الأصل، وفي النسخ الأخرى: (وعلّةُ ذلك).

(٢) علّق الدكتور مكي هنا تعليقاً نافعاً، فقال: هذه الفقرة بالغة الأهمية في التأريخ لفنِّ خيال الظِّل، لأنَّها تعني أنَّه وُجِدَ في الأندلس في فترةٍ مبكرةٍ، تعودُ إلىٰ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ويُرَجِّحُ الدارسون أنَّ هذه اللّعبة وفدتْ إلىٰ مصر خلال العصر الفاطمي [يعني: العبيديّ الباطنيّ]، من الصِّين، أو الهند، أو جاوة، وانتقلتْ من مصر إلى الأندلس، وكانت العلاقات التجارية بين البلدين متواصلةً وقويةً، والرَّحلات العلمية لا تتوقَّفُ، وكان عبدالرحمٰن بن أبي يزيد المصري، مصرياً يتاجر في الأقمشة، وعالماً جليلاً، ومحدِّثاً متبحِّراً في الوقت نفسه، وكان أستاذاً لابن حزم ولا يذكره في: «طوق الحمامة» إلّا مسبوقاً بكلمة: «أستاذي».

وقد أشار ابن حزم، في كتابه: «الفِصَل» إلىٰ لعبة خيال الظل مرّتين:

المرة الأولى في ١١٠/١، حيث يقول: قد فضحتُ أنا حيلةَ أبي محمّد، المعروف بالمخرق، في الكلام المسموع بحضرته، ولا يُرىٰ المتكلم، وسمتُ بعضَ أصحابه أن يسمعني ذلك في مكانٍ آخرَ، أو بحيث الفضاء دون بنيانٍ، فامتنع من ذلك، فظهرت الحيلة! وإنما هي في قصبةٍ مثقوبةٍ توضع وراء الحائط علىٰ شقٍّ خفيٍّ، ويتكلَّم الذي طرفُ القصبة علىٰ فيه ـ علىٰ حين غفلةٍ ممّن في المسجد ـ كلماتٍ يسيرةً الكلمتين والثلاث لا أكثر من ذلك ـ فلا يشكُّ من في البيت مع المخرق الملعون في أنَّ الكلام اندفع بحضرتهم، وكان المتكلم في ذلك محمد بن عبدالله الكاتب صاحبه.

[٧٤] طال تعجُّبي في الموت، وذلك أنّي صحبتُ أقواماً - صُحْبَةَ الرُّوح للجسد، مِنْ صِدْقِ المودّة - فلمّا ماتوا، رأيتُ بعضهم في النَّوْم، ولم أَرَ بعضهم، وقد كنتُ عاهدتُ بعضهم في الحياة علىٰ التَّزاور في المنام بعد الموت - إنْ أمكنَ ذلك - فلم أره في النَّوم بعد أنْ تقدَّمَنِي إلىٰ دارِ الآخرة، فلا أدري أنسي أم شُغِلَ؟!(١).

غَفْلَةُ النَّفْس ونسيانها في دار الابتلاء ما كانت فيه(٢) قبلَ حُلولها في الجسد؛ كغَفْلَةِ مَنْ وقع في طينٍ غَمْرٍ(٣) عن كلِّ ما عهد وعرف قبل ذلك.

والمرة الثانية في ٦/٥، حيث يقول: . . . كما يفعل العجائبيُّ الذي يضرب بسكِّينةٍ في جسم إنسانٍ، فيظنُّ من رآه - مِمَّن لا يدري حيلته - أنَّ السِّكين غاصتْ في جسد المضروب، وليس كذلك، بل كان نصابُ السكين مثقوباً فقط، فغاصت السكين في النِّصاب. وكإدخاله خيطاً في حلقةِ خاتمٍ يمسكُ إنسانٌ غيرُ متَّهَم طرفَي الخيطِ بيديه، ثم يأخذ العجائبيُّ الخاتم الذي فيه الخيط بفِيهِ، وفي ذلكَ المقام أدخلَهُ تحت يده، وكان فيه خاتم أخرىٰ، يُري من حضر حلقة الخاتم الذي في فيه، يوهمهم أنه قد أخرجه من الخيط، ثم يرد في فمه إلىٰ الخيط، ويرفع يديه وفمه، فينظر الخاتم الذي كان فيه الخيط.

وهي إشارات أهملها تماماً، على أهميتها، الذين أرخوا للعبة: «خيال الظل» - أوربيّين وعرباً - وزعموا أنه انتقل إلىٰ أوربا عن طريق إيطاليا، مروراً بمصر، بعد الغزو [كذا!] العثمانيّ، والحقُّ أنَّ هذا الفنَّ كان في الأندلس قبلَ ذلك بزمنٍ طويلٍ. انظر: إبراهيم حمادة: «خيالُ الظل وتمثيليات ابن دنيال»، دراسةٌ وتحقيقٌ، القاهرة: ١٩٦٣ .انتهى.

(١) هذا مبنيٌّ علىٰ فرض أن لأرواح الموتىٰ اختياراً في زيارة الأحياء في المنام، وهذا أمر غيبي يحتاج الخوض فيه إلىٰ دليل شرعي معتبر، وإلّا فإن مثل هذا الكلام ليس إلّا وهماً فلسفياً.

(٢) في الأصل: (ما كانت فيه دار الإبتلاء).

(٣) أي: كثيرٍ وواسعٍ.

ثُمّ أطلتُ الفِكْر - أيضاً - في ذلك فلاحَ لي شِعْبٌ زائدٌ من البيان، وهو أنّي رأيتُ النّائم إذ همّتْ نفسُهُ بالتَّخلي من جسده، وقويَ حِسُّها حتّىٰ تشاهد الغيوب؛ قد نَسِيَتْ ما كانت فيه قُبَيْل نومها نسياناً تامّاً البَتَّةَ علىٰ قُرْبِ عهدها به، وحَدَثَتْ لها أحوالٌ أُخَرُ، وهي في كلِّ ذلك ذاكرةٌ حسّاسةٌ، مُتَلَذِّذَةٌ آلِمَةٌ، ولذَّةُ النَّوْم مَحْسُوسَةٌ فِي حاله لأنَّ النَّائِمَ يلتَذُّ، ويَحْتَلِمُ، ويخاف، ويَحْزنُ؛ في حالِ نَوْمِهِ(١).

[٧٥] إنّما تأنَسُ النَّفْسُ بالنَّفْسِ، وأمّا الجسدُ فمُسْتَثْقَلٌ مبرومٌ به(٢)، ودليل ذلك استعجال المرءِ بدَفْنِ جَسَدِ حَبِيبه، إذا فارقتْهُ نفسه، وأسَفُهُ لذهاب النَّفس؛ وإنْ كانَ الجسدُ حاضراً(٣) بينَ يدَيْه.

[٧٦] لم أَرَ لإبليسَ أَصْيدَ، ولا أَقْبَحَ، ولا أحمق؛ مِنْ كلمتَيْنِ ألقاهما علىٰ أَلْسِنَةِ دُعاتِهِ:

إحداهما: اعتذارُ من أساءَ بأنَّ فلاناً أساءَ قبله.

والثَّانية: استسهالُ الإنسان أنْ يسيءَ اليوم لأنَّه قد أساء أمسِ، (أو أن يسيءَ في وجهٍ ما لأنه قد أساءَ في غَيْرِه.

فَقَدْ صارتْ هاتانِ الكلمتانِ عُذْراً؛ مسهِّلَتَيْنِ للشَّرِّ، ومُدْخلتيْن له في حدِّ ما يُعْرَفُ ويُحْمَلُ، ولا يُنْكَرُ.

---

(١) الفقرات: (٧١ - ٧٤) من الأصل فقط.

(٢) في الأصل: (مبروم به مستثقلاً).

(٣) في النسخ الأخرىٰ: (كانت الجثة حاضرة) بدل: (كان الجسد حاضراً).

[٧٧] استعمل سوء الظَّنّ حيثُ تقدِرُ علىٰ توفيته حقَّهُ في التَّحفُّظ والتأهُّب، واستعمل حُسْنَ الظَّنّ حيثُ لا طاقة بك علىٰ التَّحفُّظ، فتربَحُ راحةَ النَّفسِ.

[٧٨] حدُّ الجُودِ وغايته؛ أنْ تبذُلَ الفَضْلَ كلَّه في وجوه البرّ، وأفضل ذلك في الجار المُحْتاجِ، وذي الرَّحِمِ الفقير، وذي النِّعْمةِ الذاهبة، والأحْضَرِ فاقةً. ومنعُ الفَضْل من هذه الوجوه داخلٌ في البخل، وعلىٰ قدر التَّقْصير، والتَّوسُّعِ في ذلك؛ يكونُ المدْحُ والذَّمُّ. وما وُضِعَ في غير هذه الوجوه؛ فهو تبذِيرٌ، وهو مذْمومٌ. وما بَذَلْتَ من قُوتك لمَنْ هو أمسُّ حاجةً منك فهو فَضْلٌ وإيثارٌ، وهو خيرٌ من الجُودِ، وما مُنِعَ من هذا فهو لا حَمْدٌ ولا ذمٌّ، وهو انْتِصافٌ)[١].

بذلُ الواجباتِ فَرْضٌ.

وبذل ما فَضَل عن القوت جودٌ.

والإيثارُ علىٰ النَّفس من القوت بما لا تَهْلَكُ علىٰ عَدَمِهِ فضلٌ.

ومنعُ الواجبات حرامٌ.

ومنعُ ما فَضَلَ عن القوت بُخْلٌ وشُحٌّ.

والمنعُ من الإيثار ببعضِ القُوتِ، عُذْرٌ.

(١) ما بين القوسين من الأصل فقط.

ومنع النّفس والأهل القوت، أو بعضه؛ نتنٌ ورذالةٌ ومعصيةٌ.

والسَّخاءُ بما ظلمت فيه، أو أخذْتَهُ بغير حقِّهِ ظُلْمٌ مكرَّرٌ، والذَّمُّ جزاءُ ذلك لا الحمْدُ، لأنك إنّما تبذُلُ مالَ غيرك علىٰ الحقيقة، لا مالَكَ.

وإعطاءُ النَّاسِ حقُوقَهُمْ ممَّا عندك ليسَ جوداً، ولكنّه حقٌّ.

[٧٩] حَدُّ الشَّجاعة بذل النَّفس للموت عن الدّين، والحَريم، وعن الجار المُضْطَهد، وعن المُسْتَجِير المظلوم، وعن الهَضِيمَةِ ظُلْماً في المالِ والعِرْض، وفي سائر سُبُلِ الحقّ سواءٌ قلّ من يعارِضُ أو كَثُرَ، والتَّقْصير عن ما ذكرنا؛ جُبْنٌ وخَوَرٌ، وبذلها في عَرَضِ دُنْيا تَهَوُّرٌ وحُمْقٌ، وأحمقُ مِنْ ذلك من بذلها في المنْع عن الحقوق الواجباتِ قِبَلَكَ أو قِبَلَ غيرك، وأحمقُ من هؤلاء ـ كلِّهم ـ قومٌ ـ شاهدناهم ـ لا يَدْرُونَ فيما يَبْذُلُونَ أنفسهم، فتارةً يقاتلون زيداً عن عَمْرٍو، وتارةً يقاتلون عَمْراً عن زَيْدٍ، ولعل ذلك يكون في يومٍ واحدٍ، فيتعرَّضُونَ للمهالك بلا معنىً فيقتلون أنفسهم إلى النَّار، أو يفِرُّون إلىٰ العار. وقد أنذر بهؤلاء رسولُ الله ﷺ في قولِهِ: «يَأْتِي علىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لا يَدْري القاتلُ فِيمَ قَتَلَ، ولا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ»[١].

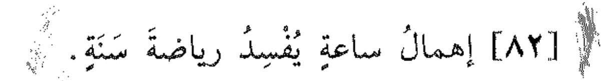
(١) رواه مسلم في: «الصحيح» (٢٩٠٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! ليأتينَّ علىٰ النَّاس زمانٌ، (وفي روايةٍ: لا تذهب الدنيا حتىٰ يأتي علىٰ الناس يومٌ)...» فذكره، وزاد: فقيل: وكيف يكون ذلك؟! قال: «الهرجُ. القاتلُ والمقتولُ في النّار».

[٨٠] حدُّ العفّةِ أنْ تغُضَّ بصرك، وجميع جوارحك من الأجسام الّتي لا تحِلُّ لك، فما عدا هذا فهو عُهْرٌ، وما نقص حتّىٰ يمسك عمّا أحلَّ اللّهُ - تعالىٰ - فهو ضَعْفٌ وعجزٌ.

[٨١] حَدُّ العدل أنْ تعطي من نفسك الواجبَ وتأخُذَهُ. وحدُّ الجَوْر أنْ تأخذَهُ ولا تُعْطِيَهُ.

وحَدُّ الكَرَمِ أن تعطي من نفسك الحقَّ طائعاً، وتتجافىٰ عن حقّك لغيرك قادراً، وهو فَضْل - أيضاً -.

وكلُّ جودٍ كرمٌ وفضلٌ، وليسَ كلُّ كرم وفَضْلٍ جوداً، فالفضلُ أعمُّ، والجودُ أخصُّ، إذ الحِلْمُ فضلٌ وليس جوداً، والفضلُ فَرْضٌ زِدْتَ عليه نافِلَةً.


[٨٢] إهمالُ ساعةٍ يُفْسِدُ رياضةَ سَنَةٍ.

[٨٣] خَطأُ الواحدِ خيرٌ من تدبير الأمور في صوابِ الجماعة الّتي لا يَجْمَعُها واحِدٌ، لأنَّ خطأَ الواحد في ذلك يُسْتدرك، وصوابُ الجماعة يُضْري علىٰ استدامة الإهمال، وفي ذلك الهلاكُ.

[٨٤][1] نُوَّارُ الفِتْنَةِ لا يَعْقِدُ[2].

(١) الفقرتان (٨٤) و (٨٥) من الأصل فقط.

(٢) النُّوّار - كالنَّور - واحدته: نُوّارة، وهي: زهرة الشَّجر والنَّبات. والفعل التَّنوير، وتنوير الشجر: إزهراها. «لا يعقد» أي: لا يشتدُّ ولا يتكامل ولا ينضج. والمعنىٰ: أنَّ للفتنة مظهراً خادعاً في مبدئه، قد يستحسن الناس صورتها، ويعقدون الآمال عليها، ولكن سرعان ما تموت وتتلاشىٰ، مثل الزَّهرة التي تموت =

[٨٥][1] كانت فيّ عيوبٌ فلم أزل - بالرّياضة، واطّلاعي علىٰ ما قالتِ الأنبياء - صلوات الله عليهم -، والأفاضلُ من الحُكماء المتأخرينَ والمُتقدّمين في الأخلاق، وفي آداب النَّفس - أُعاني مداواتها حتّىٰ أعانَ الله - عزّ وجلّ - علىٰ أكثرِ ذلك، بتوفيقه ومنّه.

وتمامُ العدل، ورياضةِ النَّفْس، والتَّصَرُّفِ بأزِمَّة الحقائق؛ هو الإقرارُ بها، ليتَّعِظَ بذلك مُتَّعِظٌ يوماً - إنْ شاءَ اللَّهُ -:

فمِنْها: كَلَفٌ في الرِّضىٰ، وإفراطٌ في الغَضَب، فلم أزل أداوي ذلك حتَّىٰ وقفتُ عند ترك إظهارِ الغَضَبِ جملةً؛ بالكلام والفعل والتَّخَبُّطِ، وامتنعت ممَّا لا يَحِلُّ من الانتصار، وتحمّلْتُ من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت علىٰ مَضَضٍ مُؤْلمٍ كان ربّما أمرضني.

وأعجزني ذلك في الرِّضىٰ، وكأنّي سامحتُ نفسي في ذلك، لأنَّها تمثَّلَتْ أنَّ ترك ذلكَ لُؤمٌ.

= قبل أن تتفتّح وتعطي ثمرتها.
وهذه الكلمة القصيرة؛ حكمةٌ عظيمةٌ، من نتاج فكر الإمام ابن حزم - رحمه الله -، الذي عاصر فتنة البربر في الأندلس، ورأىٰ بنفسه كيف أن الناس يعقدون علىٰ كلّ ثائرٍ وثورةٍ، وشرارةِ فتنةٍ جديدةٍ؛ آمالًا كبيرةً في الإصلاح والتغيير، ولكن سرعانَ ما تتحوّلُ الآمال إلىٰ مآسٍ وأحزانٍ، وضحايا وتدمير.
وهذه الكلمة تنطبق علىٰ كلّ عصرٍ ومصرٍ، ويُفترض فينا - نحن أبناء هذا العصر - أن نكون أكثر فهماً لمدلولها، واستحضاراً لمعانيها، إذ نعيش في زمن قلّ فيه العلم؛ وعمَّ فيه الجهل، ورفع الغوغاء رؤوسهم، وغلبت علىٰ النفوس الشبهات والشهوات.
ولهذه الفقرة صلة أكيدة بالتي قبلها؛ فتأمّل!

(١) الفقرتان (٨٤) و (٨٥) من الأصل فقط.

ومنها: دعابةٌ غالبةٌ، فالذي قدرتُ عليه فيها إمساكي عمّا يُغضِبُ المُمازَحَ، وسامحتُ نفسي فيها، إذْ رأيتُ تركَها من الانغلاقِ، ومُضاهياً الكِبْرَ.

ومنها: عُجْبٌ شديدٌ، فناظرَ عقلي نفسيَ بما يَعْرِفُهُ من عيوبِها، حتَّىٰ ذهب ـ كلُّه ـ ولم يَبْقَ له ـ والحمدُ لله ـ أثرٌ بل كلّفْتُ نفسي احتقارَ قَدْرِها ـ جملةً ـ، واستعمالَ التَّواضُعِ.

ومنها: حركاتٌ كانت تولِّدُها غَرارَةُ الصِّبا(1)، وضَعْفُ الأعضاءِ، فقصَرْتُ نَفْسِي علىٰ تَرْكِها فَذَهَبَتْ.

ومنها: محبَّةٌ في بُعْدِ الصِّيتِ والغَلَبَةِ، فالَّذِي وَقَفْتُ عليه من معاناة هذا الدَّاءِ الإمساكُ فيه عمَّا لا يَحِلُّ في الدِّيانة، والله المستعانُ علىٰ الباقي، مع أنَّ ظهور النَّفْسِ الغضبيَّةِ إذا كانتْ مُنقادةً للنَّاطِقَةِ فَضْلٌ، وخُلُقٌ مَحْمُودٌ.

ومنها: إفراطٌ في الأَنَفَةِ بغَّضتْ إلَيَّ إنكاحَ الحُرَمِ ـ جُمْلَةً ـ بكلِّ وجهٍ، وصَعَّبَتْ ذلكَ في طَبِيعَتِي، وكأنِّي توقَّفْتُ عن مغالبة هذا الإفراطِ الذي أعرفُ قُبْحَهُ لعوارضَ اعترضتْ عليَّ، واللَّهُ المُسْتعانُ.

ومنها: عَيْبانِ قد سَتَرَهُمَا اللَّهُ ـ تعالىٰ ـ وأعانَ علىٰ مقاوَمَتِهِما، وأعانَ بلُطْفِهِ عليهما، فذهبَ إحداهما البَتَّةَ ـ ولله الحمد ـ، وكأنَّ السَّعادةَ كانت مُوكَلَةً بي، فإذا لاحَ منه طالعٌ

(1) أي: غفلة الصِّبا.

قصدتُ طَمْسَهُ، وطاولني الثَّاني منهما، فكانَ إذا ثارتْ منه مُدُوده، نَبَضتْ عُرُوقُهُ، فيكادُ يظْهرُ، ثُمّ يسّر اللَّهُ ـ تعالىٰ ـ قَدْعَهُ بضروبٍ مِنْ لُطْفِهِ ـ تعالىٰ ـ حتّىٰ أخْلد.

ومنها: حِقْدٌ مفرطٌ قَدَرْتُ بعونِ الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ طيِّه وسَتْرِه، وغَلَبَتِهِ علىٰ إظهار جميعِ نتائجه، وأمَّا قطعه البتَّة فلم أقدرْ عليه، وأعجزني معه أنْ أصادِقَ من عاداني عداوةً صَحِيحَةً أبداً.

[٨٦] وأمَّا سوءُ الظَّنِّ فيعدُّه قومٌ عيباً علىٰ الإطلاق، وليس كذلك إلَّا إذا أدَّىٰ صاحِبَهُ إلىٰ ما لا يَحِلُّ في الدِّيانَةِ، أو إلىٰ ما يَقْبُحُ في المعاملة، وإلَّا فهو حَزْمٌ، والحَزْمُ فَضِيلَةٌ.

[٨٧](1) وأمَّا الذي يَعِيبُنِي به جهَّال أعدائي من أنِّي لا أبالي فيما أعتقده حقّاً؛ عن مُخالفةِ من خالَفْتُهُ، ولو أنَّهم جميعُ من علىٰ ظَهْرِ الأرضِ، وأنِّي لا أُبالي موافَقَةَ أهلِ بلادي في كثيرٍ من زِيِّهم الذي قد تعوَّدُوه لغير مَعْنىً، فهذه الخِصْلَةُ عندي من أكبر فضائلي الَّتي لا مثيل لها، ولعَمْري لو لم تكن فيّ ـ وأعوذُ بالله ـ لكانتْ من أعظم مُتَمَنَّيَاتي وطِلْباتي عند خالقي ـ عزَّ وجلّ ـ، وأنا أُوصي بذلك كلَّ من بلغه كلامي، فلنْ ينفَعَهُ اتِّباعُهُ النَّاس في الباطلِ والفضولِ؛ إذا أسْخَطَ ربَّه ـ تعالىٰ ـ، وغَبَنَ عقلَهُ، أو آلم نَفْسَهُ وجسده، وتكلَّفَ مؤونةً لا فائدة فيها.

[٨٨](2) وقد عابَنِي ـ أيضاً ـ بعضُ من غاب عن معرفة

(1) هذه الفقرة من الأصل فقط.
(2) هذه الفقرة ـ أيضاً ـ من الأصل فقط.

الحقائق أنّي لا آلَمُ لنَيْلِ من نال منّي، وأنّي أتملّق ذلك من نفسي إلىٰ إخواني، فلا أَمْتَعِضُ لهم إذا نيل منهم بحضرتي.

وأنا أقولُ: إنَّ من وصفَني بذلك فقد أجمل الكلام، ولم يُفسِّرْه، والكلامُ إذا أُجمِلَ اندرجَ فيه تَحسينُ القَبِيح، وتَقْبِيحُ الحسَن. أَلا ترىٰ لو أنَّ قائلًا قالَ: إنَّ فلاناً يَطَأُ أختَه! لَفَحُشَ ذلك، ولاسْتَقْبَحَهُ كلُّ سامعٍ له، حتَّىٰ إذا فَسَّرَ فقالَ: هي أخته في الإسلام. ظهر فُحْشُ هذا الإجمال وقُبْحُهُ[1].

وأمَّا أنا فإنِّي إن قلتُ: لا آلم لنَيْلِ من نال منِّي؛ لم أصدُقْ، فالألمُ في ذلك مطبوعٌ مجبولٌ في البشر ـ كلِّهم ـ، لكنِّي قد قصَرت نفسي علىٰ أن لا أُظْهِرَ لذلك غضباً ولا تخبُّطاً ولا تهيُّجاً، فإن تيسَّر لي الإمساكُ عن المقارضة ـ جملةً ـ بأنْ أتأهَّبَ لذلك فهو الَّذي أعتمدُ عليه، بحول الله ـ تعالىٰ ـ وقوَّتِهِ، وإن بادرني الأمرُ؛ لم أقارضْ إلَّا بكلامٍ مُؤلِمٍ، غيرِ فاحشٍ، أتحرَّىٰ فيه الصِّدْقَ، ولا أُخْرِجُهُ مَخْرَجَ الغضب، ولا الجهل.

وبالجملة: فإنِّي كاره لهذا إلَّا لضرورةٍ داعِيَةٍ إليه ممَّا أرجو

(١) هذه قاعدةٌ هامَّةٌ في التَّحذير من الإجمال؛ والحثُّ علىٰ التَّفصيل والبيان الجليِّ، ولا شكَّ أنَّ الإجمالَ سببٌ لشرٍّ عظيمٍ، وهو سلاحٌ بيد المفسدين لتضليل النَّاس، والتَّلبيس عليهم، وهو مَعْلَمٌ بارزٌ من معالم أهل البدع والأهواء والانحراف؛ سواءٌ في القضايا العلمية والنَّظرية، أو القضايا المنهجية والعملية، وكما قالَ الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فإنَّ الإجمالَ هو: «منشأ ضلالِ مَنْ ضَلَّ من الأمم قبلنا، وهو منشأ البدع كلِّها». أمَّا أهلُ السُّنَّة واتِّباع السَّلف؛ فإنَّ منهجهم قائم علىٰ التَّفصيل والبيان، واعتماد الألفاظ الشَّرعية البيِّنة الواضحة. وتفصيلُ هذا في مقالٍ لي نُشر في مجلة: «الهدي النبوي» التي تصدر في بريطانيا.

به قمْعَ المُستشري في النَّيل منِّي، أو قدْعَ النَّاقل إليَّ، إذ أكثرُ النَّاس مُحِبُّون لإسماع المكروه مَنْ يَسْمعُونَهُ إيَّاه علىٰ ألسنة غيرهم، ولا شَيءَ أقدع لهم من هذا الوجه، فإنَّهم يكفُّون به عن نَقْلِهم المكاره علىٰ ألسنة النَّاسِ إلىٰ النَّاس، وهذا شيءٌ لا يُفيدُ إلَّا إفسادَ الضمائرِ، وإدخالَ النَّمائمِ فقط.

ثم بعد هذا؛ فإنَّ النائلَ مِنِّي لا يخلو مِنْ أحد وجهيْن ـ لا ثالث لهما ـ:

إمَّا أنْ يكونَ كاذباً، وإمَّا أن يكونَ صادقاً.

فإن كان كاذباً فلقد عجَّلَ اللَّهُ لي الانتصارَ منه علىٰ لسان نَفْسِهِ بأنْ حصل في جملة أهل الكذب، وبأنْ نَبَّه علىٰ فَضْلي؛ بأنْ نَسَبَ إليَّ ما أنا منه بَرِيءُ العِرْضِ، وما يَعْلَمُ أكثرُ السَّامعين له كَذِبَهُ، إمَّا في وقته ذلك، وإمَّا بعد بحثهم عمَّا قالَ.

وإن كان صادقاً فإنَّه لا يخلو من أحدِ ثلاثةِ أوجهٍ:

إمَّا أن أكونَ شاركته في أمرٍ استرحتُ إليه استراحةَ المرء إلىٰ مَنْ يُقدِّرُ فيه ثقةً وأمانةً، فهذا أسوأُ النَّاس حالةً، وكفىٰ به سقوطاً وضَعَةً.

وإمَّا أن يكونَ عابَني بما يَظُنُّ أنَّه عَيْبٌ، وليس عيباً، فقد كفاني جهلُهُ شأْنَهُ، وهو المعيبُ لا من عابَ.

وإمَّا أنْ يكون عابني بعيبٍ هو فيَّ علىٰ الحقيقة، وعلم منِّي نقصاً أطلق به لسانه، فإن كان صادقاً فنفسي أحقُّ بأنْ ألوم منه،

وأنا - حينئذٍ - أجدرُ بالغضب علىٰ نفسي منِّي علىٰ من عابني بالحقّ.

وأمّا أمرُ إخواني فإنِّي لستُ أُمسك عن الامتعاض لهم، لكنّي أمتعضُ امتعاضاً رفيقاً[1] لا أزيدُ فيه علىٰ أنْ أُندِّمَ القائلَ منهم بحضرتي، وأجعله يتذمَّمُ، ويعتذرُ، ويَخْجَلُ ويتنصَّلُ، وذلك بأنْ أسلكَ به طريقَ ذمِّ من نال من النَّاسِ، وأنَّ نَظَرَ المرءِ في أمر نفسه والتهمُّمَ بإصلاحها؛ أولىٰ به من تتبُّعِ عثراتِ النَّاس، وبأنْ أذْكُرَ فضلَ صديقي، فأُبَكِّتُهُ علىٰ اقتصاره علىٰ ذكر العَيْبِ دونَ ذِكْرِ الفضيلةِ، وأنْ أقولَ له: إنَّه لا يرضىٰ بذلك فيكَ، فهو أولىٰ بالكرم منك، فلا ترضَ لنفسك بهذا. أو نحو هذا من القولِ.
وأمّا أنْ أهارِشَ القائلَ فأُحَمِّيه، وأُهَيِّجَ طباعه، وأَسْتَثِيرَ غضبه، فينبعث منه في صديقي أضعافُ ما أكره، فأنا الْجاني - حِينَئِذٍ - علىٰ صديقي، والمعرِّضُ له بِقَبِيحِ السَّبِّ، وتكراره فيه، وإسْماعه منْ لم يسمعه، والإغراءِ به، وربَّما كنتُ - أيضاً - في ذلك جانياً علىٰ نفسي ما لا ينبغي لصديقي أنْ يرضاه لي من إسماعي الجفاءَ والمكروهَ، وأنا لا أريد من صديقي أنْ يَذُبَّ عَنِّي بأكثرَ من الوجه الذي حدَّدْتُ، فإن تعدَّىٰ ذلك إلىٰ أن يَسَّابَّ النائلَ منِّي حتَّى يُوَلِّدَ بذلك أنْ يتضاعف النَّيْلُ، وأنْ يتعدَّى - أيضاً - إليه بقبيح المُواجَهة، وربَّما إلىٰ أبويَّ، وأبَوَيْهِ علىٰ قدر سَفَهِ النائل، ومنزلَتِه

(١) هكذا قرأتها إيفا رياض، وهو الصواب علىٰ ما يظهر من الأصل، وفي كثيرٍ من الطبعات: «رقيقاً».

من البذاء، وربّما كانت منازعةً بالأيدي؛ فأنا مُسْتنقصٌ لفعله في ذلك، رازٍ عليه، متظلِّمٌ منه، غيرُ شاكرٍ له، لكنِّي ألُومُهُ علىٰ ذلك أشدَّ اللوْمِ، وبالله تعالىٰ التوفيق.

[٨٩] وذمَّني - أيضاً - بعضُ من تعسَّفَ الأمورَ دونَ تحقيقٍ، بأنِّي أُضَيِّعُ مالي.

وهذه جُمْلَةٌ، بيانها[1]: أنِّي لا أُضَيِّعُ منه إلَّا ما كان في حِفْظِه نَقْصُ ديني، أو إخْلاقُ عِرْضي، أو إتْعابُ نفسي، فإنِّي أرىٰ الذي أحفظُ من هذه الثَّلاثةِ - وإنْ قلَّ - أَجلَّ في العِوض ممّا يَضِيعُ من مالي، ولو أنَّهُ كلُّ ما ذَرَّتْ عليه الشَّمْسُ.

[٩٠] ووجَدْتُ أفضلَ نِعَمِ اللَّهِ - تعالىٰ - علىٰ العَبْد أن يَطْبَعَهُ علىٰ العَدْلِ، وحُبِّه، وعلىٰ الحقِّ وإيثاره، (فما استعنتُ علىٰ قَمْعِ هذه الطَّوالح الفاسدةِ، وعلىٰ كلِّ خيرٍ في الدِّين والدنيا؛ إلّا بما في قُوَّتي من ذلكَ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله - تعالىٰ -. وأمَّا من طُبِعَ علىٰ الجَوْرِ واسْتِسْهاله، وعلىٰ الظُّلْم واسْتِخْفافه؛ فلْيَيْأَسْ من أنْ يُصْلِحَ نَفْسَهُ، أو يُقَوِّمَ طباعَهُ أبداً، ولْيَعْلم أنّه لا يُفْلِحُ في دينٍ، ولا في خُلُقٍ مَحْمُودٍ)[2].

[٩١] وأمَّا الزَّهْو، والحسدُ، والكَذِبُ، والخيانةُ؛ فلم

(١) كذا في الأصل، وحُذِفت في النُّسخ الأخرىٰ هذه الجملة من أول الفقرة إلىٰ هنا، وجُعلت هكذا: (عِيبَ بعضُهُم بإتلاف ماله، فقال:)، وهذا تحريف مقصود في النَّصّ أريد به نسبة الكلام لمجهول، وليس لابن حزم رحمهُ الله الذي كتب هنا عن نفسه بصراحة وجرأة بالغة.

(٢) ما بين القوسين من الأصل فقط، وكذا الفقرة (٩١) التالية.

أعرِفُها بطبْعي قطُّ، وكأنّي لا حمْدَ لي في تركِها، لمنافرة جبلّتي[1] إيّاها، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

[٩٢] مِنْ عَيْبِ حُبِّ الذِّكْرِ أنّه يُحْبِطُ الأعمالَ إذا أحبَّ عامِلُها أن يُذْكَرَ بِها، فكادَ يكون شِرْكاً، لأنّه يعمل لِغَيْرِ اللّهِ ـ عزّ وجلّ ـ، وهُوَ يَطْمِسُ الفضائلَ لأنَّ صاحبه لا يكادُ يَفْعَلُ الخَيرَ حبّاً للخَيْرِ لكنْ لِيُذْكَرَ بِهِ.

[٩٣] أبلغَ في ذَمِّكَ مَنْ مَدَحَكَ بما لَيْسَ فِيكَ لأنّه نَبَّهَ علىٰ نقصِكَ. وأبلغَ في مَدْحِكَ من ذمَّكَ بما لَيْسَ فِيكَ لأنّه نَبَّهَ علىٰ فضْلِكَ، ولَقَد انْتَصَرَ لك مِنْ نَفْسِهِ بذلك وباسْتِهْدافه إلىٰ الإنكار واللائمة.

[٩٤] لو عَلِمَ النَّاقِصُ نَقْصه لكان كاملًا.

[٩٥] لا يَخْلُو مخلوقٌ مِن عَيْبٍ، فالسَّعِيدُ من قَلَّتْ عيُوبُه ودقَّتْ.

[٩٦] أكثرُ ما يكونُ ما لم يُظَنَّ، والحَزْمُ هو التَّأَهُّبُ لما يُظنُّ. فسُبْحانَ مرتِّب ذلك لِيُرِيَ الإنسانَ عَجْزَهُ وافْتِقارَهُ إلىٰ خالِقِهِ ـ تعالىٰ ـ.

❀ ❀ ❀

(١) الجبِلّة: الخِلْقة والطّبيعة.

فَصْلٌ
في الإخوانِ والصَّداقَةِ والنَّصِيحَةِ

[٩٧] اسْتَبْقاكَ مَنْ عاتَبَكَ، وزَهَدَ فِيكَ من اسْتهان بسيِّئاتِكَ[1].

[٩٨] العتابُ للصَّديقِ كالسَّبْكِ للسَّبِيكَةِ، فإمّا تصْفُو وإمّا تَطِيرُ.

[٩٩] من طوىٰ من إخوانك سِرَّهُ الّذي يَعْنِيكَ دُونَكَ؛ أخونُ لَكَ مِمَّنْ أفشىٰ سِرَّك، لأنَّ من أفشىٰ سِرَّكَ فإنَّما خانَكَ فقط، ومن طوىٰ سِرَّهُ دُونَكَ مِنْهُمْ فَقَدْ خانَكَ، واسْتَخْوَنَكَ.

[١٠٠] لا تَرْغب في مَنْ يَزْهَدُ فيك فتَحْصُلَ علىٰ الخيْبة والخِزْي.

[١٠١] لا تَزْهد فيمن يَرْغَبُ فيكَ فإنّه بابٌ من أبواب الظُّلْم، وتَرْكُ مقارَضَةِ الإحسانِ، وهذا قَبِيحٌ.

(١) في النسخ الأخرىٰ: (بشأنك).

[١٠٢] من امْتُحن بأنْ يُخالط النّاس فلا يُلْقِ بوهْمه[١] - كلّه - إلىٰ من صَحِب، ولا يَبْنِ منه إلّا علىٰ أنّه عدوٌّ مُناصِبٌ، ولا يُصْبِحْ كلَّ غداةٍ إلّا وهو مُترقِّبٌ من غَدْرِ إخوانه، وسوءِ معاملتهم؛ مِثْلَ ما يترقَّبُ من العدوِّ المكاشِفِ، فإنْ سَلِمَ من ذلك؛ فللّه الحمدُ، وإنْ كانتِ الأخرىٰ؛ ألفىٰ متأهِّباً ولم يَمُتْ همّاً.

(وأنا أُعْلِمُكَ أنَّ بعض من خالصني المودَّة، وأصفاني إيّاها غاية الصَّفاء في حالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والسَّعَةِ والضِّيق، والغَضَبِ والرِّضىٰ؛ تغيَّرَ عليَّ أقبحَ تَغَيُّرٍ بَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ عاماً متَّصِلَةً في غايةِ الصَّفاءِ، لسَبَبٍ لَطِيفٍ جداً، ما قدَّرْتُ قطُّ أنَّه يؤثِّرُ مثلُهُ في أحدٍ من النّاس، ما صَلُحَ لي بعدها، ولقد أهمَّني ذلك سِنِينَ كثيرةً، همّاً شديداً)[٢].

ولكنْ لا تَسْتَعْمِل مع هذا سوءَ المعاملةِ؛ فتَلْحَقَ بذوي الشّرارةِ من النّاسِ، وأهلِ الخَبِّ[٣] منهم.

[١٠٣] ولكنْ هاهنا طريقٌ وَعِرَةُ المسْلَكِ، شاقَّةُ المُتَكَلَّف، يحتاجُ سالِكُها إلىٰ أن يكونَ أهدىٰ من القَطا[٤]، وأحْذَرَ من العقْعَقِ[٥] حتَّىٰ يُفارِقَ النَّاسَ راحلًا إلىٰ ربِّه - تعالىٰ -، وهذه

(١) في النسخ الأخرىٰ: (توهُّمَهُ)، وفي (ب): (يكون) بدل: (يلق).
(٢) ما بين القوسين من الأصل فقط.
(٣) الخبُّ - بفتح الخاء، ويُكسر -: الخدّاع الجُرْبُز، الذي يسعىٰ بين النّاس بالفساد.
(٤) القطا، والقطوات، جمع: القطاة: طائرٌ.
(٥) العقْعق: طائر أبلق بسوادٍ وبياضٍ، يشبه صوته العين والقاف.

الطريقُ هي طريقُ الفوزِ في الدِّينِ والدُّنيا، (يحْرِزُ صاحبُها صفاء نِيّاتِ ذوي النُّفوسِ السّليمة، والعُقُود الصَّحِيحة، البراءِ من المكْرِ والخَدِيعة، ويَحْوي فضائل الأبرار، وسجايا الفُضَلاءِ، ويحْصُل مع ذلك علىٰ سلامةِ الدُّهاةِ، وتخلُّصِ الخُبَثاءِ ذوي النُّكْراءِ والدَّهاءِ)[١]، وهي:

أنْ تكْتُم سِرَّ كلِّ من وَثِقَ بك، وأنْ لا تُفْشي إلىٰ أحدٍ من إخوانِكَ، ولا مِنْ غيرهم من سِرِّكَ ما يُمْكِنُكَ طَيُّهُ بوجهٍ من الوُجُوهِ، ولو أنَّهُ أخصُّ النَّاسِ بك.

وأنْ تفي لجَمِيعِ من ائْتَمنكَ، ولا تأمنْ أحداً علىٰ شيءٍ من أمرِكَ؛ تُشْفِقُ عليه، إلَّا عن ضرورةٍ لا بُدَّ منها، فارتَدْ - حينئذٍ - واجْتَهِدْ، وعلىٰ الله - تعالىٰ - الكفايةُ.

وابذُلْ فضل مالِكَ وجاهِكَ لكلِّ من سأَلك، أو لَمْ يسْأَلك، ولكلِّ من احتاجَ إليكَ وأمكنك نَفْعُه، وإنْ لم يَعْتَمِدْكَ[٢] بالرَّغْبة، ولا تُشْعر نفسك انتظارَ مقارضةٍ علىٰ ذلك من غَيْرِ ربِّك - عزَّ وجلَّ -، ولا تَبْنِ إلَّا علىٰ أنَّ من أحسنتَ إليه؛ أوّلُ مُضرٍّ بكَ، وساعٍ عليكَ، فإنَّ ذوي التَّراكِيبِ الخَبِيثَةِ يُبْغِضُون - لشدّة الحسد - [كلَّ] من أحْسَنَ إليهم؛ إذا رأَوْه في أعلىٰ مِنْ أحوالهم.

وعامِلْ كلَّ أحدٍ في الأُنْسِ أجملَ معاملةٍ، وأضمِرِ السُّلُوَّ عنه

(١) ما بين القوسين من الأصل فقط.
(٢) في النسخ الأخرىٰ: (يقصدك).

إنْ فات ببعض الآفاتِ التي تأتي مع مرور الأيّام، والليالي؛ تعش مُسالماً[1]، مُستريحاً.

[١٠٤] لا تَنصَحْ علىٰ شرطِ القبُول، ولا تشفع علىٰ شرط الإجابة، ولا تَهَبْ علىٰ شرط الإثابة، لكن علىٰ سبيلِ استعمال الفضْلِ، وتأدِيَةِ ما عليك من النَّصيحة، والشَّفاعة، وبَذْلِ المعْرُوف.

[١٠٥] حَدُّ الصَّداقة الذي يدورُ علىٰ طرفَيْ مَحْدُودِهِ هو؛ أنْ يكونَ المرءُ يَسُوؤُه ما يسوءُ الآخر، ويسُره ما يسُره، فما سَفَلَ عن هذا فليسَ صديقاً، ومن حمل هذه الصِّفةَ فهو صَدِيقٌ، وقد يكون المرءُ صديقاً لمَنْ ليسَ صِديقَهُ.

وأمّا الَّذي يدخل في بابِ الإضافة فهو؛ المُصادِقُ[2]، فهذا يقتضي فعلًا من فاعِلَيْنِ، إذ قد يُحِبُّ الإنسانُ من يُبْغِضُهُ، وأكثرُ ذلك في الآباء مع الأبناء، وفي الإخوة مع إخْوَتِهم، وبَيْنَ الأزواجِ، وفيمَنْ صارتْ محبَّته عِشْقاً.

وليسَ كلُّ صديقٍ ناصحاً، لكن كلُّ ناصحٍ صَديقٌ فيما نَصَحَ فيه.

(١) كذا في الأصل، ويمكن ضبطها بفتح اللام، أو بكسره. وفي النسخ الأخرىٰ: (سالماً).

(٢) كذا في الأصل و(ب)، وهذه الجملة من الفقرة منهما فقط. وجعلها الدكتور إحسان عبّاس في طبعته: (المصادقة)، ولهذا وجه، ولكن كان يلزمه الإشارة إلىٰ هذا التغيير في النّص مع أن المخطوط (ب)، والذي يفترض أنه كان بين يديه؛ ينصُّ علىٰ (المصادق).

وحدُّ النّصيحة هو؛ أنْ يسوء المرء ما ضرّ الآخر، ساء ذلك الآخرَ، أو لم يسُؤْهُ، وأن يَسُرّه ما نفعه، سرّ الآخرَ أو ساءه، فهذا شَرْطٌ في النّصيحة، زائدٌ علىٰ شُرُوطِ الصَّداقة.

وأقصىٰ غاياتِ الصَّداقةِ الَّتي لا مَزِيدَ فيها؛ من شاركك بنفسه ومالِهِ لغَيْرِ علَّةٍ تُوجب ذلكَ، وآثرك علىٰ من سواك. ولولا أنّي شاهَدْتُ مُظَفَّراً ومُباركاً[1] ـ صاحِبَيْ بَلَنْسِيَةَ ـ لقدَّرتُ أنَّ هذا الخُلُق مَعْدُومٌ في زمانِنَا، ولكِنّي ما رأيتُ ـ قطُّ ـ رجلَيْنِ استَوْفيا جميع أسبابَ الصَّداقة، مع تأتّي الأحوالِ المُوجِبَة للفُرْقة؛ غَيْرَهُما.

[١٠٦] ليس شيءٌ من الفضائِلِ أشْبَهُ بالرَّذائلِ من الاسْتِكْثار من الإخوانِ والأصدقاءِ، فإنَّ ذلكَ فَضِيلَةٌ تامَّةٌ، متركِّبةٌ، لأنّهم لا يُكْتَسبُونَ إلا بالحِلْمِ، والجُودِ، والصَّبْرِ، والوفاءِ، والاسْتِضْلاعِ، والمُشَارَكة، والعِفَّةِ، وحُسْنِ الدِّفاع، وتَعْلِيم العِلْم، وبكلّ حالةٍ مَحْمُودَةٍ.

(١) اثنان من الصَّقالبة، من موالي العامريين، استقلّا ببلنسية بمساعدة أهلها سنة ٤٠١هـ، بعدما انفرط الأمر في الفتنة البربرية بالأندلس، وظهرت ما تسمّى بدول الطوائف، وقصة الصَّداقة الحميمة التي أشار إليها ابن حزم، كانت نادرة وملفتة للنّظر، فقد تحدَّث عنها ـ أيضاً ـ ابن حيّان الأندلسيُّ المؤرّخ، فقال: ثمّ بلغ من سياسة هذين العبدَين الفدْمَين ـ مبارك ومظفّر ـ في مدّة إمارتهما إلى أن تقارضا من صِحَّة الأُلْفة فيها طول حياتهما؛ بمَا فاتا في معناهما أشقاء الأخوة، وعشّاق الأحِبَّة، فنزلا ـ يومئذٍ ـ معاً في سلطانهما في قصر الإمارة مختلطيْن، يجمعهما في أكثر أوقاتهما ـ مائدةٌ واحدةٌ، ولا يتميَّز أحدهما عن الآخر في عظيم ما يستعملانه، من كسْوةٍ، وحِلْيةٍ، وفراشٍ، ومركوبٍ، وآلةٍ، ولا ينفردان إلّا في الحُرَم خاصةً، علىٰ أنَّ جماعة حُرَمِهما كنَّ مختلطاتٍ في منازل القصر (ابن بسّام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١٥/١/٣).

ولسنا نعني الشّاكرية[1] والأتباع أيّام الحُرْمَة[2]، (فأولئك لُصوصُ الإخوانِ، وخُبثُ الأصدقاءِ، والّذين يُظنُّ أنّهم أولياءُ، وليسوا كذلك، ودليلُ ذلكَ)[3] انْحِرافُهم عند انحرافِ الدُّنيا، ولا نعني - أيضاً - المُصَادِقينَ لبعضِ الأَطماعِ، ولا المُتَنادِمينَ علىٰ الخمْرِ، والمُجْتَمِعينَ علىٰ المعاصي، والقبائحِ، والمُتَألِّفِينَ علىٰ النَّيْلِ من أعراضِ النَّاس، والأخذِ في الفُضُولِ، وما لا فائدةَ فيه؛ فليسَ هؤلاءِ أصدقاء، ودَليلُ ذلك أنَّ بعضهم ينالُ مِنْ بعضٍ، ويَنْحرف عنه؛ عند فَقْدِ تلك الرَّذائل التي جمعتهم، وإنَّما نعني إخوانَ الصَّفاءِ لغيرِ معنىً إلَّا لله - عزَّ وجلَّ - (إمَّا للتَّناصُر علىٰ بعض الفضائل الجِدِّية، وإمَّا لنَفْسِ المَحَبَّةِ المجرَّدةِ فقط.

ولكنْ)[3] إذا أحْصَيْتَ عيوبَ الاسْتِكْثار منهم، (وصعوبةَ الحال في إرضائهم، والغَرَرَ في مشاركتهم)[3]، وما يَلْزَمُكَ من الحقِّ لهم عند نَكْبَةٍ تَعْرِضُ (لهم؛ فإنْ غدرتَ بهم، أو أسْلَمْتَهُم لُؤْمْتَ وذُمِمْتَ، وإنْ وَفَيْتَ أضْرَرْتَ بنفسك، وربَّما هَلَكْتَ - وهذا الَّذي لا يرضىٰ الفاضلُ بسواهُ إذا تَنَشَّبَ في الصَّداقة - وإذا تَفَكَّرْتَ في الهمِّ بما يعْرِضُ لهم وفيهم من مَوْتٍ)[4]، أو فراقٍ، أو غَدْرِ مَنْ يغدرُ منهم؛ كادَ[5] السُّرور [بهم] لا يفي بالحُزْنِ المُمْضِ من أجْلِهم.

---

(١) الشّاكريُّ: الأجير، والمُسْتخدَم، معرَّب جاكر. «القاموس».

(٢) في النسخ الأخرىٰ: (الخدمة).

(٣) ما بين القوسين من الأصل فقط.

(٤) ما بين القوسين من الأصل فقط.

(٥) في النسخ الأخرىٰ: (كان).

[١٠٧] وليس في الرّذائل [شيْءٌ] أشبه بالفضائل من محبّة المَدْحِ، ودليلُ ذلك؛ أنّه في الوجه سُخْفٌ مِمَّن يرضىٰ به، (وقدْ جاءَ في الأثر في المدّاحين ما جاء[1])[2]؛ إلّا أنَّه قد يُنْتفَعُ به في الإقْصار عن الشَّرِّ، والتَّزيُّدِ من الخير، وفي أن يَرْغَبَ في ذلك الخُلُقِ المَمْدوحُ.

(ولقد صَحَّ عندي أنَّ بعض السَّائسينَ للدُّنيا لَقِيَ رجلًا من أهل الأذىٰ للنَّاس - وقَدْ قَلَدَ بعضَ الأعمال الخَبيثةِ - فقابَلَهُ بالثَّناء عَلَيْه، وبأنَّه قد سَمِعَ شُكْره مُسْتفيضاً، ووَصْفَهُ بالجميل والرِّفْق مُنْتَشِراً، فكانَ ذلك سبباً إلىٰ إقصارِ ذلك الفاسق عن كثيرٍ من شَرِّه)[3].

[١٠٨] بعضُ أنواعِ النَّصِيحة يَشْكُلُ تَمْييزُهُ من النَّمِيمة، لأنّ من سمع إنساناً يذمُّ آخرَ ظالماً له، أو يَكِيدُهُ ظالماً له؛ فكَتم ذلك

---

(١) وذلك في عدَّة أحاديث، منها: ما رواه همَّام بن الحارث؛ أن رجلًا جعل يمدحُ عثمانَ، فعَمِدَ المقداد (بن الأسود رضي الله عنه)، فجثا علىٰ ركبتَيْه - وكان رجلًا ضخماً - فجعلَ يَحْثو في وَجْهه الحَصْباءَ. فقال له عثمانُ (رضي الله عنه): ما شأنك؟ فقال المقداد: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأَيْتُمْ المدّاحِين، فاحثُوا علىٰ وُجُوههم التُّرابَ» رواه مسلم في: «الصحيح» (٣٠٠٢)، قال النووي - رحمه الله - في: «شرحه» ١٨/١٠٠: هذا الحديث قد حمله علىٰ ظاهره المقداد - الذي هو راويه -، ووافقه طائفة، وكانوا يحثُّون التراب في وجهه حقيقةً، وقال آخرون: معناه: خيِّبوهم فلا تعطوهم شيئاً لمدحهم. انتهىٰ.
قلت: وقد عمل بهذا الأمر النبوي - علىٰ وجه الحقيقة - أيضاً: ابن عمر رضي الله عنهما، أخرجه البخاري في: «الأدب المفرد» (٣٤٠) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٢) ما بين القوسين من الأصل فقط.

(٣) ما بين القوسين من الأصل و (ب).

عن المقول فيه والمكيد؛ كان الكاتمُ لذلك ظالماً مذموماً. ثمّ إنْ أعلمه بذلك ـ علىٰ وجهه ـ كان ربّما قد ولّد علىٰ الذّامّ، والكائدِ ما لم يَبْلُغه استحقاقُه بَعْدُ من الأذىٰ، فيكونُ ظالماً له، وليسَ من الحقّ أنْ يُقْتَصَّ من الظّالم بأكثر من قَدْرِ ظُلْمه، فالتخلُّصُ في هذا الباب صَعْبٌ إلّا علىٰ ذوي العقول.

والرأيُ للعاقل في مِثْلِ هذا أنْ يُحَفِّظَ المَقُولَ فيه من القائلِ ـ فقطْ ـ دون أن يبلِّغَه ما قالَ؛ لئلّا يقع في الاسْتِرْسالِ زائدٌ[1]؛ فيهْلِكَ. وأمّا في الكَيْدِ؛ فالواجبُ أنْ يُحَفِّظَهُ من الوجه الذي يُكادُ منه، بألْطَفِ ما يقدر في الكِتْمانِ علىٰ الكائد، وأبلغ ما يقدر في تَحْفيظِ المَكيدِ، ولا يَزِدْ علىٰ هذا شيئاً.

وأمّا النَّميمةُ فهي التبليغُ لما سَمِعَ ممّا لا ضَرَرَ فيه علىٰ المُبلّغ إليه، وبالله التَّوْفيقُ.

[١٠٩] النَّصيحَةُ مرّتانِ، فالأولىٰ فَرْضٌ وديانةٌ، والثّانيةُ تَنْبيهٌ وتذكيرٌ، وأمّا الثالثةُ فتَوْبيخٌ وتَقْريعٌ، وليسَ وراءَ ذلك إلّا الرَّكْلُ واللِّطامُ، وربّما أشدُّ من ذلك من البغي والأذىٰ، اللّهمّ إلّا في معاني الدِّيانة، فواجبٌ علىٰ المرء تِرْدادُ النُّصْح فيها، رَضِيَ المنصوحُ أو سَخِطَ، تأذّىٰ النّاصحُ بذلك أو لم يَتأذَّ.

[١١٠] إذا نصحتَ فانْصَحْ سِرًّا لا جهراً، وبتَعْريضٍ لا تصريحٍ، إلّا لمن لا يفهم فلا بُدّ من التَّصْريح له، ولا تَنْصحْ علىٰ

(١) في النسخ الأخرىٰ: (إليه).

شرط القبول منك، فإنْ تعدّيْتَ هذه الوجوه فأنت ظالمٌ لا ناصحٌ، وطالبُ طاعةٍ ومُلْكٍ لا مؤدي حقٍّ، أمانةً وأخوّةً، وليس هذا حُكْمُ العقلِ، ولا حكم الصّداقة، لكن حكم الأميرِ مع رَعِيّتِه، والسّيِّد مع عَبْدِهِ.

[١١١] لا تكلِّفْ صديقَكَ إلّا مثلَ ما تَبْذُلُ له من نفسك، فإنْ طَلَبْتَ أكثرَ فأنتَ ظالِمٌ. ولا تَكْسب إلّا علىٰ شرطِ الفَقْد، ولا تتولَّ إلّا علىٰ شرط العُزْلَةِ، وإلّا فأنتَ مُضِرٌّ بنفسك، خبيثُ السِّيرة.

[١١٢] مسامَحَةُ أهلِ الاسْتِئْثارِ، والاستِغْنام، والتَّغافُلُ لهم؛ ليسَ مُرُوْءَةً ولا فضيلةً، بل هو مَهانةٌ وضَعْفٌ، وتَضْرِيةٌ[1] لهم علىٰ التمادي علىٰ ذلك الخُلُقِ المذمومِ، وتَغْبِيطٌ لهم به، وعَوْنٌ علىٰ ذلك الفعل السُّوءِ.

وإنّما تكونُ المسامحةُ مُرُوْءَةً لأهلِ الإنصافِ، المبادرين إلىٰ الإنصافِ والإيثار، فهؤلاءِ فرضٌ علىٰ أهل الفَضْل أنْ يعاملُوهُم بمِثْلِ ذلك لا سِيّما إنْ كانَتْ حاجتُهُم أَمَسَّ، وضرورتُهُم أشدّ.

[فإنْ قالَ قائِلٌ: فإذا كانَ كلامُكَ هذا موجباً لإسقاط المُسَامحة، والتَّغافِلِ للإخوان، فقد استوىٰ الصّديقُ والعدُوّ، والأجنبيُّ في المعاملة، وهذا إفسادٌ ظاهِرٌ.

(١) من: ضَرِيَ به، أي: لهج. والمعنىٰ: يحملهم ذلك علىٰ أن يلهجوا به، ويتخذوه عادةً لهم، بحيث لا يصبرون عنه.

فنقولُ ـ وباللّه تعالىٰ التّوفيق ـ: كلّا؛ ما نخصُّ إلّا علىٰ المسامحةِ، والإيثار، والتّغافلِ، ليس لأهل التّغنّم؛ لكن للصّديقِ حقّاً.

فإنْ أردتَ معرفةَ وَجْهِ العملِ في هذا، والوقوفَ علىٰ نَهج الحقِّ؛ فإنَّ القِصّةَ التي توجب الأَثَرَةَ من المرءِ علىٰ نفسه[1] صديقهُ؛ ينبغي لكلِّ واحدٍ من الصَّدِيقَيْنِ أنْ يتأمَّلَ ذلك النَّازلَ[2]، فأيُّهما كانَ أمسَّ حاجةً فِيهِ، وأَظْهَرَ ضرورةً لدَيْهِ، فحُكْم الصَّداقة والمُرُوءةِ يقتضي للآخرِ، ويوجِبُ عليه؛ أنْ يُؤْثر علىٰ نفسه في ذلك، فإنْ لم يَفْعل فهو مُتَغَنِّمٌ، مُسْتَكْثِرٌ، لا ينبغي أن يُسامَحَ البَتّة، إذ ليسَ صَدِيقاً ولا أخاً. فأمَّا إذا اسْتَوتْ حاجتُهُما، واتَّفَقَتْ ضَرُورَتُهُمَا فحَقُّ الصَّداقَةِ ـ هٰهنا ـ أنْ يُسَارِعَ كلُّ واحدٍ منهما إلىٰ الأَثَرة علىٰ نفسه، فإن فعلا ذلك؛ فَهُما صَدِيقانِ، وإنْ بَدَرَ أحدُهما إلىٰ ذلك، ولم يُبادر الآخرُ إليه فإنْ كانتْ عادَتُهُ هذه فليس صديقاً، ولا يَنْبغي أن يُعامَلَ معاملةَ الصَّداقة، وإن كانَ قد يُبادرُ هو ـ أيضاً ـ إلىٰ مِثْلِ ذلك فِي قِصَّةٍ أخرىٰ؛ فهما صَدِيقانِ][3].

[١١٣] من أردت قضاءَ حاجتِهِ بعدَ أنْ سألك إيَّاها، أو أردتَ ابتداءَهُ بقضائِها، فلا تعملْ له إلّا ما يُريدُ هو لا ما تُريدُ أنت، وإلّا فأمْسِكْ. فإنْ تعدَّيْتَ هذا؛ كنتَ مُسِيئاً لا مُحْسِناً،

(١) في (بْ): (الأمر عَلى) بدل: (المرء علىٰ نفسه).
(٢) كذا في (ب) وفي (س)، (د)، (ي): (الأمر).
(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل، وثابت في بقية النسخ.

ومُسْتحِقاً للّوْم ـ منه ومن غيْره ـ لا للشُّكْر، ومُقْتضِياً للعداوة لا للصّداقة.

[١١٤] لا تنْقل إلىٰ صديقك ما يُؤلِم نفسه، ولا ينتفع بمعرفته؛ فهذا فِعْلُ الأرذال، ولا تَكْتُمْه ما يَسْتَضِرُّ بجهله؛ فهذا فِعْلُ أهلِ الشَّرِّ.

[١١٥] لا يَسُرُّك أنْ تُمدح بما ليسَ فيك، بل ليَعْظُم غمُّك بذلك، لأنَّه نَقْصك يُنَبِّهُ النَّاسَ عليه، ويُسْمِعُهُمْ إيَّاه[1]، وسخريةً منك، وهَزَءٌ بك، ولا يرضىٰ بهذا إلَّا أحمقُ، ضعيفُ العقل.

ولا تَأْسَ إذا ذُمِمْتَ بما ليسَ فيكَ، بل افْرَحْ به فإنَّه فضْلُك يُنَبِّهُ الناسَ علَيْه، ولكن افْرَحْ إذا كانَ فيك ما تَسْتَحِقُّ به المدْحَ، وسواءٌ مُدِحْتَ به، أوْ لم تُمْدَح، واحْزَنْ إذا كانَ فيكَ ما تستحقُّ به الذَّمَّ، وسواءٌ ذُمِمْتَ به، أو لم تُذَمَّ.

[١١٦] مَنْ سمع قائلًا يقولُ في امرأةِ صديقه قولَ سوءٍ؛ فلا يُخْبِرْهُ بذلك أصلًا، لاسِيَّما إنْ كانَ القائلُ عَيَّابَةً، وقّاعاً في النَّاس، سَليطَ اللسان، أو دافِعَ مَغْرَمٍ عن نفسه، يُريدُ أن يكثر أمثاله في النَّاس، وهذا كَثِيرٌ مَوجُودٌ.

وبالجملةِ فلا يُحدِّثِ الإنسانُ إلّا بالحقِّ، وقولُ هذا القائل لا يُدْرىٰ أحقٌّ هو أم باطلٌ، إلّا أنّه في الدِّيانةِ عَظِيمٌ.

(١) (ويسمعهم)، في (ب): (ويسمع)، وفي القلب من ضبط هذه العبارة شيء، ولعل الأصح أن تضبط هكذا: (يُنبّهُ النّاسَ عليه، ويُسمّعُون إيّاه).

فإنْ سمع القول مُستفيضاً من جماعةٍ، وعلم أنّ أصل ذلك القول شائعٌ، وليس راجعاً إلىٰ قول إنسانٍ واحدٍ، أو اطّلع علىٰ حقيقةٍ، إلّا أنّه لا يقدر أنْ يوقِفَ صديقه علىٰ ما وقف هو عليه، فلْيُخبره بذلك بَيْنَهُ وبَيْنَهُ، في رفقٍ، ولْيَقُل له: النّساءُ كَثِيرٌ. أَوْ: حَصِّنْ مَنْزِلَكَ، وثَقِّفْ أهلك، واجْتَنِبْ أمراً كذا! وتحفَّظْ من وَجْهِ كذا! فإنْ قَبِلَ المنصوحُ، وتحرَّزَ؛ فحظَّ نَفْسِهِ أصابَ، وإنْ رآه لا يتحفَّظُ ولا يُبالي أمْسَكَ، ولا يعاوِدُهُ بكلمةٍ، وتمادىٰ[1] علىٰ صداقته إيّاه؛ فليسَ في ألّا يُصَدِّقه في قوله ما يُوجِبُ قَطِيعَتَهُ، فإن اطّلع علىٰ حقيقةٍ، وقَدِرَ أن يُوقِفَ صديقه علىٰ مِثْلِ ما وَقَفَ عليهِ هو من الحقيقة، ففَرْضٌ عليه أن يُخْبِره بذلك، وأن يوقِفَه علىٰ الجليّةِ، فإن غَيَّرَ فذلك، وإنْ رآهُ لا يُغَيِّر فلْيَجْتَنِبْ صُحْبَتَه، فإنّه رَذْلٌ، لا خير فيه، ولا نَقِيَّةَ[2].

[١١٧] ودخولُ رجلٍ مُسْتَتِرٍ في منزلِ المرءِ دليلُ سوءٍ لا يحتاجُ إلىٰ غَيْرِهِ، ودخولُ المرأةِ في منزلِ رجلٍ علىٰ سَبِيلِ التَّسَتُّرِ مِثْلُ ذلك أيضاً، وطلبُ دليلٍ أكثرَ من هٰذَيْنِ سُخْفٌ، وواجبٌ أن يُجْتَنَبَ مثل هذه المرأةِ، وفِراقُها علىٰ كلِّ حالٍ، ومُمْسِكُها لا يَبْعُدُ عن الدِّياثَةِ.

[١١٨] النَّاسُ في أخلاقهم[3] علىٰ سَبْعِ مراتبَ:

(١) أي: استمرَّ.

(٢) كذا في الأصل مجوَّداً مضبوطاً. ونقوة الشيء: خِيارُه. وفي (ب) تقرأ: (تقيّة)، وفي بقية النسخ: (بقيّة).

(٣) في (ب)، (س)، (ي): (في بعض أخلاقهم)، وفي (ب) في الحاشية: (مطلبٌ: النّاس في بعض أخلاق).

فطائفةٌ تمدحُ في الوجه، وتذمُّ في المَغيب، وهذه صفةُ أهل النِّفاقِ من العيَّابين، وهذا خُلُقٌ فاشٍ في النّاسِ، غالبٌ عليهم.

وطائفةٌ تذمُّ في المشهد والمغيب، وهذه صفةُ أهل السّلاطة والوَقاحة من العَيَّابِينَ.

وطائفةٌ تمدحُ في الوجه والغَيْبِ؛ وهذه صفَةُ أهل المَلَقِ والطّمع.

وطائفةٌ تذمُّ في المَشْهد وتَمْدَحُ في المَغِيبِ؛ وهذه صفة أهل السُّخْفِ والنَّواكَةِ[1].

وأمَّا أهلُ الفَضْلِ فيُمْسِكُونَ عن المَدْحِ والذَّمِّ في المُشاهدة، ويُثْنُونَ بالخير في المَغِيبِ، أو يُمْسِكُونَ عن الذَّمِّ.

وأمَّا العَيَّابُونَ البُرآءُ من النِّفاق والقِحَةِ؛ فيُمْسِكُون في المَشْهد، ويَذُمُّونَ في المَغِيب.

وأمَّا أهلُ السَّلامة فيُمْسِكون عن المدح، وعن الذّمّ في المَشْهَدِ والمغيب.

ومن كلِّ هذه الصِّفاتِ قد شاهَدْنا وبَلَوْنا.

[١١٩] إذا نَصَحْتَ ففي الخلاء بكلامٍ لَيِّنٍ، ولا تُسْندْ سبّ من تحدِّثه إلىٰ غَيْرِك فتكون نَمّاماً، فإنْ خَشَّنْتَ كلامك في النَّصيحةِ فذلك إغراءٌ وتَنْفِيرٌ، وقد قالَ اللّهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]. وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لا تُنَفِّرُوا»[2].

(١) النُّوك ـ بالضم والفتح ـ: الحُمْقُ.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

وإنْ نصحت بشرْط القبُول منك فأنت ظالمٌ، ولعلّك مُخطِئ في وجْهِ نُصْحك فتكونُ مطالِباً بقبُول خطئك، وبترْك الصّواب.

[١٢٠] لكلِّ شيءٍ فائدةٌ، ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهلِ الجهل منفعةً عظيمةً، وهي؛ أنّه توقّدَ طَبْعي، واحْتدمَ خاطري، وحَمِيَ فكري، وتَهَيّجَ نشاطي، فكان ذلك سبباً إلىٰ تواليفَ لي عظيمة المنْفعةِ، ولولا اسْتِثَارُهُمْ ساكني، واقْتِداحُهُم كامِني ما انْبَعَثْتُ لتلكَ التّواليفِ.

[١٢١](١) ولا تُصاهِرْ إلىٰ صديقٍ، ولا تُبايِعْهُ، فما رأينا هٰذَيْنِ العَمَلَيْنِ إلّا سبباً للقطيعة، وإن ظنَّ أهلُ الجهل أنَّ فيهما تأكيداً للصِّلَة فليسَ كذلك، لأنَّ هذَيْنِ العَقْدَيْنِ داعيانِ كلَّ واحدٍ إلىٰ طَلَبِ حظِّ نَفْسِه، والمُؤْثِرونَ علىٰ أنْفِسهم قليلٌ جداً، فإذا اجتمعَ طلبُ كلِّ امرىءٍ حظَّ نفسه؛ وقعتِ المُنَازعةُ، ومع وُقُوعها فسادُ المودّةِ.

وأسلمُ المُصاهَرةِ مَغَبَّةً مصاهرةُ الأهلينَ بعضهم بعضاً، لأنَّ القرابةَ تقتضي الصَّبرَ(٢) وإنْ كَرِهُوهُ، لأنّهم مُضطرُونَ إلىٰ ما لا انْفكاكَ لهم منه من الاجتماع في النَّسبِ الذي تُوجبُ الطبيعةُ لكلِّ أحدِ الذَّبَّ عنه، والحمايةَ له.

❊ ❊ ❊

(١) هذه الفقرة ساقطة من الأصل، وهي ثابتة في النسخ الأخرىٰ.

(٢) كذا في (ب)، وفي: (س)، (د)، (ي): (العدل)، وما في (ب) أجود.

فصلٌ
في أنواعِ المحبَّةِ

وقد سُئِلْتُ عن تحقيق القولِ فيها، وفي أنواعها.

[١٢٢] المحبةُ ـ كلُّها ـ جنسٌ واحدٌ، ورَسْمُها أنّها الرغبةُ في المحبوب، وكراهيةُ منافَرَته، والرَّغْبةُ في المقارضة منه بالمحبّةِ.

وإنّما قدَّر النَّاسُ أنَّها تختلفُ من أجلِ اختلاف الأغراض فيها، وإنّما اختلفتِ الأغراضُ من أجلِ اختلاف الأطماعِ، وتزايُدها وضعفها، أو انْحِسَامِها، فتكونُ المحبَّةُ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفيه، وللاتّفاقِ علىٰ بعضِ المطالب، وللأب وللابن، وللقرابة وللصَّديق، وللسُّلطان، ولِذاتِ الفِراشِ، وللمُحْسِنِ، وللمأمول، وللمَعْشُوقِ، فهذا ـ كلُّه ـ جنسٌ واحدٌ، اختلفتْ أنواعُهُ ـ كما وصفتُ لكَ ـ علىٰ قدر الطَّمع فيما ينال من المحبوب، فلذلك اختلفتْ وجوه المحبّةِ.

وقد رأَيْنا من ماتَ أسفاً علىٰ ولَدِهِ كما يَمُوتُ العاشق أسفاً علىٰ معشوقه، وبلغنا عن من شَهِقَ من خوف الله ـ تعالىٰ ـ

وإنْ نصحت بشرْط القبُول منك فأنت ظالمٌ، ولعلّك مُخطِئٌ في وجْهِ نُصْحِكَ فتكونُ مطالِباً بقبُولِ خطئك، وبترْك الصّواب.

[١٢٠] لكلِّ شيءٍ فائدةٌ، ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهلِ الجهل منفعةً عظيمةً، وهي؛ أنّه توقّدَ طَبْعي، واحْتَدَمَ خاطري، وحَمِيَ فكري، وتَهَيَّجَ نشاطي، فكان ذلك سبباً إلىٰ تواليفَ لي عظيمةِ المَنْفعةِ، ولولا اسْتِثَارُهُمْ ساكني، واقْتِداحُهُم كامِني ما انْبَعَثْتُ لتلكَ التَّوالِيفِ.

[١٢١](١) ولا تُصاهِرْ إلىٰ صديقٍ، ولا تُبايِعْهُ، فما رأينا هٰذَيْنِ العَمَلَيْنِ إلَّا سبباً للقطيعة، وإن ظنَّ أهلُ الجهل أنَّ فيهما تأكيداً للصِّلَة فليسَ كذلك، لأنَّ هذَيْنِ العَقْدَيْنِ داعيانِ كلَّ واحدٍ إلىٰ طَلَبِ حظِّ نَفْسِه، والمُؤْثِرونَ علىٰ أنْفِسِهم قليلٌ جداً، فإذا اجتمعَ طلبُ كلِّ امرىءٍ حظَّ نفسه؛ وقعتِ المُنَازعةُ، ومع وُقُوعها فسادُ المودَّةِ.

وأَسلمُ المُصاهَرةِ مَغَبَّةً مصاهرةُ الأهلينَ بعضهم بعضاً، لأنَّ القرابةَ تقتضي الصَّبرَ(٢) وإنْ كَرِهُوه، لأنَّهم مُضطرُونَ إلىٰ ما لا انْفكاكَ لهم منه من الاجتماع في النَّسَبِ الذي تُوجبُ الطبيعةُ لكلِّ أحدٍ الذَّبَّ عنه، والحمايةَ له.

❀ ❀ ❀

(١) هذه الفقرة ساقطة من الأصل، وهي ثابتة في النسخ الأخرىٰ.

(٢) كذا في (ب)، وفي: (س)، (د)، (ي): (العدل)، وما في (ب) أجود.

فَصْلٌ
في أنواعِ المحبَّةِ

وقد سُئِلْتُ عن تحقيق القولِ فيها، وفي أنواعها.

[١٢٢] المحبةُ ـ كلُّها ـ جنسٌ واحدٌ، ورَسْمُها أنَّها الرغبةُ في المحبوب، وكراهيةُ منافَرَته، والرَّغْبةُ في المقارضة منه بالمحبَّةِ.

وإنَّما قدَّر النَّاسُ أنَّها تختلفُ من أجلِ اختلاف الأغراض فيها، وإنَّما اختلفتِ الأغراضُ من أجلِ اختلاف الأطماع، وتزايُدها وضعفها، أو انْحِسَامِها، فتكونُ المحبَّةُ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفيه، وللاتِّفاقِ علىٰ بعض المطالب، وللأب وللابن، وللقرابة وللصَّديق، وللسُّلطان، ولِلذاتِ الفِراشِ، وللمُحْسِنِ، وللمأمول، وللمَعْشُوقِ، فهذا ـ كلُّه ـ جنسٌ واحدٌ، اختلفتْ أنواعُهُ ـ كما وصفتُ لكَ ـ علىٰ قدر الطَّمع فيما ينال من المحبوب، فلذلك اختلفتْ وجوه المحبَّة.

وقد رأَيْنا من مات أسفاً علىٰ ولَدِهِ كما يَمُوتُ العاشق أسفاً علىٰ معشوقه، وبلغنا عن من شهق من خوف الله ـ تعالىٰ ـ

ومحبّته فمات، ونجد المرء يغار على سُلْطانه، وعلى صديقه؛ كما يغارُ على ذاتِ فراشه، وكما يَغارُ العاشِقُ على مَعْشُوقه.

[١٢٣] فأدنى أطماعِ المُحِبِّ(١) ممّن يحبُّ الحَظْوةُ منه، والرِّفعةُ لديه، والزُّلفةُ عنده، إذا لم يَطْمَعْ في أكثر، وهذه غايةُ أطماعِ المُحِبِّينَ للَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ. ثُمَّ يزيدُ الطَّمعُ في المجالسة، ثُمَّ في المحادثة، والمُؤازرة، وهذه أطماعُ المرءِ في سلطانه وصديقه، وذَوي رَحِمِهِ.

وأقصى أطماعِ المُحِبِّ ممَّن يُحِبُّ المخالطةُ بالأعضاءِ إذا رجَا ذلك، ولذلكَ نَجِدُ المحبَّ المُفْرِطَ المَحَبَّةِ في ذاتِ فراشِهِ يَرْغَبُ في مجامَعَتِها على هيآتٍ شتَّى، وفي أماكنَ مختلفةٍ، لِيَستكْثِرَ من الاتِّصالِ، ويدخلُ في هذا البابِ المُلامسةُ بالجسد والتَّقْبيلُ، وقد يَقَعُ بعضُ هذا الطَّمعِ في الأب في ولَدِه فيتعدَّى إلى التَّقْبيلِ والتَّعْنيقِ.

[١٢٤] وكل ما ذكرنا إنَّما هو على قدر الطَّمع، فإذا انحسم الطمعُ عن شيءٍ ما ـ لبعضِ الأسبابِ المُوجبة له ـ مالتِ النَّفسُ إلى ما تَطْمَعُ فيه.

ونجدُ المُقِرَّ بالرؤية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ شديدَ الحنينِ إليه، عظيمَ النُّزوعِ نحوها(٢)، لا يَقْنَعُ بدرجةٍ دُونها؛ لأنَّهُ يطمع فيها، ونجدُ المُنكر لها لا تَحِنُّ نفسه إلى ذلك، ولا يتمنَّاه أصلًا؛ لأنه

(١) في النسخ الأخرى: (المحبّة)، وله وجهٌ.

(٢) في (س) و (ي): (الروّح نحوها)، وفي (ب): (التروح إليها نحوها).

لا يطْمع فيه، ونجدُه يقتصرُ على الرِّضى والحلول في دار الكرامة فقط، لأنَّه لا تطْمعُ نفسه في أكثر.

ونجدُ المُستحِلّ لنكاح القرائب لا يقنعُ مِنْهُنّ بما يقنع المُحَرِّمُ لذلك، ولا تقف محبّتُهُ حيثُ تَقِفُ محبَّةُ من لا يطْمعُ في ذلك. فنَجدُ من يستحِلُّ نكاحَ ابْنَتِهِ، وابنةَ أخيه ـ كالمجوس واليهود ـ لا يَقِفُ من محبَّتِهما حيثُ يقف المسلمُ، بل نجدُهُما يَتَعَشَّقَانِ(١) الابنةَ وابنةَ الأخِ كتَعَشُّقِ المسلمِ من يَطْمع في مخالطته بالجِماع، ولا نَجِدُ مسلماً يَبْلُغُ ذلكَ فيهما، ولو أنَّهما أجملُ من الشَّمس، وكان هو أَعْهَرَ النَّاسِ وأغْزَلَهُم، فإنْ وُجِدَ ذلك في النُّدْرةِ فلا تَجِدُهُ إلَّا من فاسدِ الدِّين، قد زالَ عنه ذلك الرَّادِعُ، فانْفَسَحَ له الأملُ، وانْفَتَحَ له بابُ الطَّمَعِ.

ولا يُؤْمَنُ من المسلم أنْ تَفْرِطَ محبَّتُه لابنة عمّه لحًا حتّى تَصِيرَ عشقاً، وحتَّى تتجاوَزَ محبَّتُهُ لها محبَّتَهُ لابنته، وابنة أخيه، وإنْ كانتا أجملَ منها، لأنَّه يطمعُ من الوصول إلى ابنة عمّه حيثُ لا يَطْمَعُ من الوصولُ إلى ابنته، وابنة أخيه. ونَجِدُ النَّصرانيّ قد أَمِنَ ذلك من نفسه في ابنة عمِّه ـ أيضاً ـ لأنَّه لا يَطْمع منها في ذلك، ولا يَأْمَنُ ذلك من نفسه في أختِهِ من الرَّضاعةِ، لأنَّه طامعٌ بها في شَرِيعَتِهِ.

فَلاحَ بهذا عياناً ما ذكرنا من أنَّ المحبَّةَ ـ كلُّها ـ جنسٌ

(١) عَشِق، وتعَشَّق؛ كلاهما بمعنىً واحد، وقيل: التَّعشُّقُ هو تكلُّفُ العشق. راجع: «لسان العرب»، مادة: (عشق).

واحدٌ، لكنّها تختلف أنواعُها علىٰ قدر اختلاف الأغراض فيها، وإلّا فطبائعُ البشر ـ كلّهم ـ واحدةٌ، إلّا أنّ للعادة والاعتقادِ الدِّينيّ[1] تأثيراً ظاهراً.

[١٢٥] ولسنا نقولُ: إنَّ الطَّمَعَ له تأثيرٌ في هذا الفَنِّ وحده، لكنّا نقولُ: إنَّ الطَّمَع سببٌ إلىٰ كلِّ هَمٍّ، وحتّىٰ في الأموال والأحوال، فإنّنا نجدُ الإنسانَ يموتُ جارُه، وخالُه، وصديقُه، وابن عمّته، وعمُّه لأمٍّ، وابنُ أخيه لأمّ، وجدُّه أبو أمّه، وابنُ بنتِه؛ فإذ لا مطمعَ له في ماله ارتفع عنه الهَمُّ بفَوْتِهِ عن يده، وإنْ جلّ خطره، وعَظُمَ مقداره، فلا سبيلَ إلىٰ أنْ يمرَّ الاهتمام بشيءٍ منه ببالِهِ، حتّىٰ إذا مات له عُصْبَةٌ علىٰ بُعْدٍ، أو مَوْلىً علىٰ بُعْدٍ، وحَدَثَ له الطَّمَعُ في ماله؛ حدثَ له من الهَمِّ، والأسفِ، والغَيْظِ، والفِكْرة بفوت اليَسيرِ منه عن يده؛ أمرٌ عَظِيمٌ.

وهكذا في الأحوال، فنجدُ الإنسانَ من أهل الطَّبَقَة المتأخِّرة لا يهتَمُّ لانفاذِ غَيْره أمورَ بلدِهِ دونَ أمْره، ولا لتَقْريبِ غيره وإبْعادِهِ، حتّىٰ إذا حَدَثَ له طَمَعٌ في هذه المرتَبَةِ؛ حدثَ له من الهَمِّ، والفكرة، والغَيْظِ؛ أمرٌ ربّما قادَهُ إلىٰ تلفِ نفسه، وتلف دنياه وأخراه.

فالطَّمَعُ أصلٌ لكلِّ ذُلٍّ، ولكلِّ هَمٍّ، وهو خُلُقٌ سوءٍ ذَمِيمٌ.

وضدُّه نزاهةُ النَّفْسِ، وهذه صفةٌ فاضلةٌ متركِّبةٌ من النَّجْدة،

(١) في النسخ الأخرىٰ: (الدّياني)، نسبةً إلىٰ الدّيانة.

والجُود، والعدْل، والفهْم، لأنّه قد فهم قلّة الفائدة في استعمال ضِدّها فاستعملها، وكانتْ فيه نَجْدةٌ أنتجتْ له عزّة نفسه فتنزّه، وكانتْ فيه طَبيعةُ [سخاوة نفسٍ؛ فلم يهْتمَّ لما فاتَهُ، وكانتْ فيه طبيعةُ] عدلٍ؛ حبّبتْ إليه القناعة، وقلّةَ الطَّمَعِ.

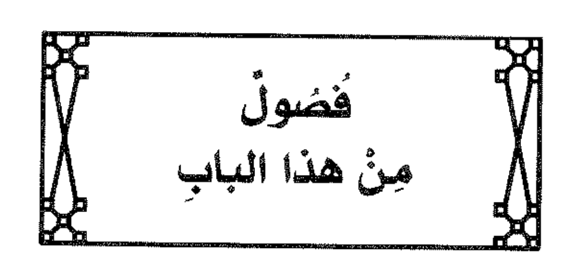
فإذاً نزاهةُ النَّفْسِ متركِّبةٌ من هذهِ الصِّفاتِ، فالطَّمَعُ ـ الذي هو ضِدُّها ـ متركِّبٌ من الصِّفاتِ المضادَّةِ لهذه الصِّفاتِ الأربع، وهي: الجُبْنُ، والشُّحُّ، والجَوْرُ، والجهل.

والرَّغْبةُ طَمَعٌ مُسْتوفىً زائدٌ[1] مُسْتَعْمَلٌ. ولولا الطَّمعُ ما ذلَّ أحدٌ لأحدٍ. وأَخْبرني أبو بكرِ بنُ أبي الفَيَّاضِ، قال: كتب عثمانُ بنُ مُحامِسٍ[2] علىٰ بابِ داره ـ بإسْتِجَةَ ـ: يا عُثمانُ: لا تَطْمَعْ!



(١) كذا في الأصل، في بقية النسخ: (متزايدٌ)، عدا (ي) ففيها: (متزائد).

(٢) عثمان بن محمد بن محامس، أبو سعيد، كان زاهداً عالماً، معروفاً بالعزوف عن الدّنيا، توفي سنة (٣٥٦هـ)، ترجمت له المصادر الأندلسي، وروىٰ الحميدي في «جذوة المقتبس» (٧٠٥) كلمته هذه، عن ابن حزم به.



فُصولٌ مِنْ هذا البابِ

[١٢٦] من امْتُحِنَ بقُرْبِ من يَكرهُ؛ كمَن امتُحِنَ ببُعْدِ من يُحِبُّ، ولا فَرقَ.

[١٢٧] إذا دعا المُحِبُّ في السُّلُوِّ فإجابَتُهُ مضمونَةٌ، وهي دَعْوةٌ مُجابَةٌ.

[١٢٨] اقْنَعْ بمَنْ عندكَ، يَقْنَعْ بكَ مَنْ عندكَ.

[١٢٩] السعيدُ في المَحَبَّةِ هو من ابتليَ بمَنْ يَقْدِرُ أنْ يُلْقِيَ عليه قُفْلَهُ[1]، ولا تلحَقُه في مواصَلَتِهِ تَبِعَةٌ من اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولا ملَامةٌ من النَّاس.

وصلاحُ ذلك: أنْ يتوافَقَا في المحبَّة.

وتَحْرِيرُهُ: أن يكونا خالِيَيْنِ من المَلَلِ، فإنَّه خُلُقُ سوءٍ مُبْغِضٌ.

وتمامُهُ: نومُ الأيَّام عنهما مدةَ انْتِفاع بعضهما ببعضٍ، وأنَّى بذلك إلَّا في الجنَّة. وأمَّا ضمانُهُ بيقينٍ؛ فليسَ إلَّا فيها فهي دارُ

(١) يعني: أن يفرد به، ويحظى بوصْله.

الفجائعُ، ولقطع الهرمُ دون استيعاب اللّذة.

[١٣٠] إذا ارتفعت الغَيْرةُ فأيْقنْ بارتفاع المحبّة.

[١٣١] الغَيْرةُ خلقٌ فاضِلٌ متركّبٌ من النّجْدَة والعدْل، لأنّ من عدل كرِهَ أن يُتعَدّىٰ إلىٰ حُرْمَةِ غيره، وأن يتعدّىٰ غيرُهُ إلىٰ حُرمته، ومَن كانتِ النّجْدَةُ طبعاً له حدثتْ فيه عِزّةٌ، ومن العزّة تحدثُ الأَنَفَةُ من الاهتضام.

[١٣٢] أخبرني بعضُ من صحبناه في الدَّهْر عن نفسه أنّه ما عرف الغيرةَ ـ قطُّ ـ حتّى ابْتلي بالمحبَّةِ؛ فغارَ، وكانَ هذا المُخبِرُ فاسدَ الطّبْعِ، خبيثَ التّرْكيب، إلَّا أنّه كانَ من أهل الفَهْمِ والجُودِ.

[١٣٣] دَرَجُ المحبَّةِ خَمْسٌ:

أوّلُها: الاستحسانُ، وهو أن يتَمثَّلَ النّاظِرُ صورةَ المنظور إليه حَسَنَةً، أو يَسْتَحْسِنَ أخلاقه، وهذا يَدْخُلُ في باب التَّصادُقِ.

ثُمَّ الإعجاب، وهو رَغْبَةُ النّاظر في المنظورِ إليه، وفي قُرْبه.

ثُمَّ الأُلْفَة، وهي الوَحْشَةُ إليه متىٰ غاب.

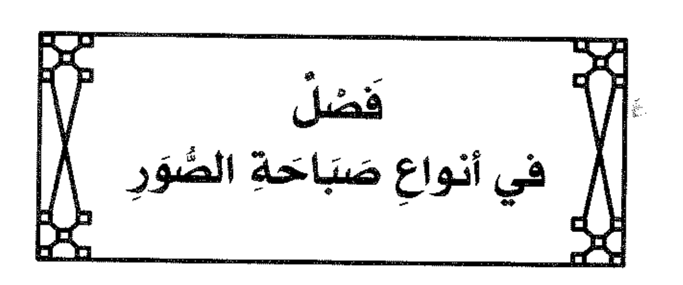
ثُمَّ الكَلَفُ، وهو غَلَبَةُ شُغْلِ البال به، وهذا النَّوعُ يُسَمَّىٰ في باب الغَزَل بالعِشْق.

ثُمَّ الشَغَفُ، وهو امتناعُ النَّومِ، والأكل، والشُّرب؛ إلَّا اليسيرَ من ذلك، وربَّما أدَّىٰ ذلك إلىٰ المَرَضِ، أو إلىٰ التَّوْسوس، أو إلىٰ المَوْتِ، وليسَ وراءَ ذلك مَنْزِلَةٌ في تناهي المحبَّةِ أصلًا.

فَصْلٌ[1]

[١٣٤] كُنّا نَظُنُّ أنَّ العشقَ في ذواتِ الحركة، والحدّة من النّساءِ أكثرُ، فوجدنا الأمرَ بخلاف ذلك، وهو في السّاكنة الحركاتِ أكثرُ؛ ما لم يَكُنْ ذلك السُّكُونُ بَلَهاً.

(١) هذا الفصل القصير ساقط من الأصل، فأثبتناه من النسخ الأخرىٰ.



فَصْلٌ في أنواعِ صَبَاحَةِ الصُّوَرِ

وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها.

[١٣٥] الحلاوةُ: رِقَّةُ المَحاسِن، ولُطْفُ الحركات، وخِفَّةُ الإشارات، وقَبُول النَّفْس لأعراضِ الصُّورة، وإن لم تكن هنالك صفاتٌ ظاهرةٌ.

[١٣٦] القِوامُ: جمالُ كلِّ صفةٍ علىٰ حِدَتِها، ورُبَّ جميلِ الصِّفاتِ علىٰ انفرادِ كلِّ صفةٍ منها؛ باردُ الطَّلْعَةِ، غيرُ مليحٍ، ولا حسنٍ، ولا رائعٍ، ولا حُلْوٍ.

[١٣٧] الرَّوْعَةُ: بهاءُ الأعضاءِ الظَّاهرة، (مع جمالٍ فيها)، وهيَ ـ أيضاً ـ الفَراهَةُ[١] والعِتْقُ[٢].

[١٣٨] الحُسْنُ: هو شيءٌ ليس له في اللُّغة اسم يُعَبَّر به عنه غَيْرَهُ! ولكنَّه محسوسٌ في النُّفوس باتفاق كلِّ من رآه، وهو بُرْدٌ

---

(١) والفارهة، هي: الجارية المليحة.

(٢) بالكسر، ومعناه هنا: الجمال.

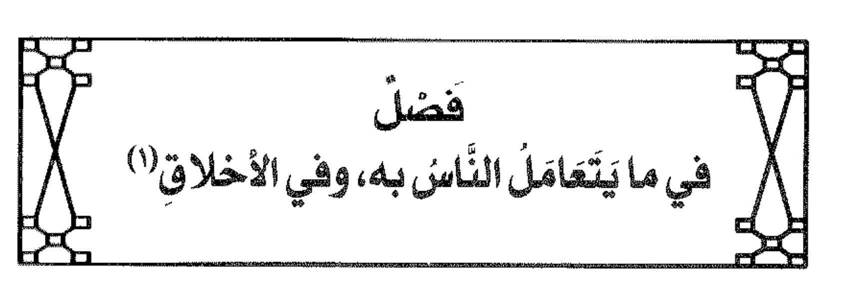
مكشوٌ على الوجه، وإشراقٌ يستميلُ القلوبَ نحوه، فتجتمعُ الآراءُ علىٰ استحسانه، وإنْ لم تكنْ هناك صفاتٌ جميلةٌ، (وكأنَّه شيءٌ في نفْسِ المَرْئِيّ تَجِدُهُ نفسُ الرَّائِي، وهذه أجلُّ مراتب الصَّباحة، لأنَّ كلَّ من رآه راقَهُ، واسْتَحْسَنه، وقَبِلَهُ، حتَّىٰ إذا تأملتَ الصِّفاتِ إفْراداً لم تَرَ طائلًا)[1].

ثُمَّ تختلفُ الأهواءُ بَعْد هذا فمِن مُفَضِّلٍ للرَّوْعةِ، ومن مُفضِّلٍ للحَلاوة، وما وجدنا أحداً قَطُّ يفضِّلُ القِوامَ المُنْفَرِدَ.

[١٣٩] الملَاحةُ: اجتماعُ شيءٍ بشيءٍ، ممَّا ذكرنا.

❋ ❋ ❋

(١) ما بين القوسين جاءت في (ب) هكذا: (فكلُّ من رآه؛ راقَهُ واستحسنه وقبله، حتّىٰ إذا تأملت الصفات إفراداً لم تر لها بلا (ولعله: بالًا)، وكأنّه شيء في النفس المرء، تجده نفس الرائي، وهذه أجل مراتب الصَّباحة، ثم..)، وفي (س) و (د) و (ي) هكذا: (فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله، حتىٰ إذا تأملت الصفات إفراداً لم تر طائلًا، وكأنّه شيء في نفس المرئيّ يجده نفس الرائي، وهذه أجلُّ مراتب الصَّباحة).



فَصْلٌ
في ما يَتَعامَلُ النَّاسُ به، وفي الأخلاقِ[1]

[١٤٠] التَّلَوُّنُ المذمومُ، هو التنقُّل من زِيٍّ متكلَّفٍ لا معنىٰ له، إلىٰ زِيٍّ آخرَ مِثْلَهُ فِي التَّكَلُّفِ؛ وفي أنَّه لا معنىٰ له، ومن حالٍ لا معنىٰ لها إلىٰ حالٍ لا معنىٰ لها، بلا سببٍ يُوجِبُ ذلك.

وأمَّا من استعملَ من الزِّيِّ ما أَمْكَنَهُ ممَّا به إليه حاجةٌ، وترَكَ التَّزَيُّدَ ممَّا لا يحتاج إليه؛ فهذا عَيْنٌ من عيونِ العقل، والحِكْمةِ؛ كَبيرٌ.

وقد كانَ رسولُ الله ﷺ وهو القُدْوَةُ في كلِّ خيرٍ، والّذي أثْنىٰ اللَّهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ خُلُقِهِ[2]، والَّذي جَمَعَ الله ـ تعالىٰ ـ فيه أَشْتَاتَ الفضائل بتمامها، وأَبْعَدَهُ عن كلِّ نقصٍ: يعودُ المريضَ مع أصحابِهِ راجلًا في أقصىٰ المدينة، بلا خُفٍّ ولا نَعْلٍ، ولا قلنسُوةٍ ولا عَمامة، ويلبسُ الشَّعرَ؛ إذا حَضَرَهُ، وقد يَلْبَسُ الوَشْيَ من

(١) في النسخ الأخرىٰ: (فصل في ما يتعامل النّاس به في الأخلاق).

(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

الحبرات[1]؛ إذا حضره، ولا يتكلّفُ ما لا يحتاجُ إليه، ولا يتركُ ما يحتاجُ إليه، ويستغني بما وجد عمّا لا يجدُ. ومرةً يمشي راجلًا حافياً، ومرةً يلبس الخُفّ، ويركبُ البغْلة الرّائعة الشّهباء، ومرةً يركبُ الفرس عُرْياً، ومرةً يركب النّاقة، ومرّةً حماراً، ويُردِفُ عليه بعضَ أصحابه. ومرةً يأكلُ التّمْر دون خُبْزٍ، والخبز يابساً، ومرةً يأكُلُ العناقَ المشْويّةَ[2]، والبطّيخَ بالرُّطب، والحلْواءَ. يأخذُ القُوت، ويبْذُلُ الفَضْلَ، ويتركُ ما لا يحتاج إليه، ولا يتكلّفُ فوق مقدار الحاجةِ، ولا يغْضَبُ لنفْسِه ولا يدعُ الغضبَ لربّه عزّ وجلّ[3].

[١٤١] الثّباتُ الذي هو صِحّةُ العقْدِ، والثّباتُ الذي هو اللّجاجُ[4]؛ مشتبهان اشتباهاً لا يفرّقُ بينهما إلّا عارفٌ بكيفيّة الأخلاق.

والفرقُ بينهما أنّ اللّجاجَ هو: ما كان على الباطل، أو ما

(١) الحبرات، وحبر، جمع: الحِبرة: بُرد يمانية، موشية مخطّطة، تصنع من القطن، وكانت أشرف الثياب عندهم، سمّيت حِبرةً لأنّها تحبر، أي: تزيّن، والتّحبير: التّزيين والتّحسين.

(٢) العناقُ: هي الأنثى من أولاد المعز؛ ما لم يتمّ له سنةٌ.

(٣) ما ذكره المصنّف ـ رحمه الله ـ هنا، من شمائل النبيّ ﷺ وأحواله وعيشه مما يُعرف من مجموع أحاديثه وأخباره وسيرته الكريمة، وقد كنت تتبّعتُ المفردات التي ذكرها، فخرّجتها على الطريقة الحديثية، فكثرت الهوامش وطالت جدّاً بما لا يتناسب وموضوع الكتاب، فرأيت الضّرب عليها، والاكتفاء بالإشارة الموجزة إلى صحّة معانيها.

(٤) اللّجاج، واللّجاجة: الخصومة.

لعلّهُ الفاعل نصْراً لما نشب فيه، وقدْ لاح له فسادُهُ، أو لم يلُحْ له صوابُهُ ولا فسادُهُ، وهذا مذْمُومٌ، وضدُّه: الإنصافُ.

وأمّا الثّباتُ الذي هو صِحّةُ العقد؛ فإنّما يكونُ على الحقّ، أو على ما اعتقده المرءُ حقًّا ما لم يلُحْ له باطلُهُ، وهذا محمودٌ، وضدُّه: الاضطرابُ، وإنّما يلامُ ببعض هذَيْن لأنّه ضيّع تدبُّر ما ثبت عليه، وتركَ البحثَ عمّا التزمَ، أحقٌّ هو أم باطل.

[١٤٢] حدُّ العقل: استعمالُ الطّاعاتِ والفضائل، وهذا الحدّ ينطوي فيه اجتنابُ المعاصي والرّذائل، وقد نصّ اللّهُ ـ تعالىٰ ـ في غير موضعٍ من كتابه علىٰ أنّ من عصاه لا يَعْقِلُ. قال ـ تعالىٰ ـ حاكياً عن قومٍ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]. ثُمّ قال ـ تعالىٰ ـ مُصدّقاً لَهُم: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١].

[١٤٣] وحدُّ الحُمْقِ: استعمالُ المعاصي والرّذائل.

وأمّا التّعدّي، وقذفُ الحجارةِ، والتّخْليطُ في القول، فإنّما هو جُنونٌ، ومرارٌ[1] هائجٌ.

وأمّا الحُمْقُ فهو ضِدُّ العقل، وهُما ما بيّنّا ـ آنفاً ـ، ولا واسطة بيْن الحُمْقِ والعقْلِ إلّا السُّخْفُ.

[١٤٤] وحدُّ السُّخْفِ: هو العملُ والقولُ بما لا يحتاجُ إليه في دينٍ ولا دُنْيا، ولا حميد خُلُقٍ ممّا ليس معصيةً ولا طاعةً،

(١) المرار: جمع مِرّة: مزاج من أمزجة البدن.

ولا عوناً عليهما، ولا فضيلةً، ولا رذيلةً مُؤذيةً، ولكنّه من هذر القوْل، وفُضول العمل، فعلىٰ قدْر الاستكْثار منْ هذيْن الأمريْن، أو التّقلُّل منْهُما يَسْتحِقُّ المرْءُ اسْم السُّخْف. وقدْ يسْخُفُ المرْءُ في قصّةٍ، ويعْقِلُ في أُخْرىٰ، ويَحْمُقُ في ثالِثة.

وضدُّ الجنونِ: تَمْييزُ الأشياءِ، ووجودُ القُوّة علىٰ التّصرُّفِ في المعارفِ والصّناعاتِ، وهذا الّذي يُسمّيه الأوائلُ النُّطْق، ولا واسطة بينهما.

[١٤٥] وأما إحْكامُ أَمْرِ الدُّنيا، والتَّوَدُّدُ إلىٰ النّاس بما وافقهم، وصلُحتْ عليه حالُ المُتَوَدِّدِ منْ باطلٍ أو غَيْرِه، أوْ عَيْبٍ، أو ما عداهُ، والتَّحيُّلُ في إنْماءِ المالِ، وبُعْدِ الصَّوْتِ، وتَسْبيبِ[1] الجاه بكُلِّ ما أمكن من معصيةٍ ورذيلةٍ؛ فليس عقلًا، ولقد كانَ الّذين صدّقهُمُ اللّهُ تعالىٰ ـ في أنّهم لا يعقلونَ، وأخبرنا ـ تعالىٰ ـ بأنّهم لا يعقلون؛ سائسين لدنياهم، مُثمِّرينَ لأموالهم، مُدارينَ لملوكهم، حافظين لرئاستهم، لكنّ هذا الخُلُق يسمّىٰ: الدّهاءُ، وضدُّه الغفْلةُ[2] والسّلامةُ.

وأما إذا كان السّعيُ في ما ذكرنا تصاوُناً، وأنفةً فهو يُسمّىٰ الحزْمُ، وضدُّه ـ المنافي له ـ: التّضْييعُ.

[١٤٦] وأمّا الوقارُ، ووضع الكلام موضِعَهُ، والتوسُّط في تدبير المعيشة، ومسايرة النّاس بالمسالمة، فهذه الأخلاقُ تسمّىٰ الرزانةُ، وهي ضدُّ السُّخْف.

(١) في النسخ الأخرىٰ: (تمشية).

(٢) في النسخ الأخرىٰ: (العقل)، وما في الأصل أصح.

[١٤٧] الوفاءُ مركّبٌ من العدل، والجُود، والنّجْدة، لأنّ الوفيّ رأىٰ من الجوْر ألّا يقارض من وثق به، أو من أحسن إليه، فعدل في ذلك، ورأىٰ أنّ يسْمح بعاجلٍ ـ يقْتضيه له عدمُ الوفاء ـ من الحظّ؛ فجاد في ذلك، ورأىٰ أنْ يتجلّد لما يتوقّعُ من عاقبة الوفاء؛ فشجُع في ذلك.

[١٤٨] أُصولُ الفضائل ـ كلّها ـ أربعةٌ، عنها تتركّبُ كلُّ فضيلةٍ، وهي: العدلُ، والفَهْمُ، والنَّجْدةُ، والجُودُ.

وأصولُ الرّذائِل ـ كلّها ـ أربعةٌ، عنها تتركّبُ كلُّ رذيلةٍ، وهي أضدادُ التي ذكرنا، وهي: الجَوْرُ، والجهْلُ، والجُبْنُ، والشُّحُ.

[١٤٩] الأمانةُ والعِفّةُ: نوعانِ من أنواع العدْل والجُود[1].

[١٥٠] النّزاهةُ في النّفْسِ: فضيلةٌ تتركّبُ من النّجْدة والجُود، وكذلك الصّبْر.

[١٥١] الحِلْمُ: نوعٌ مُفْردٌ من أنواع النّجْدة.

[١٥٢] القناعةُ: فضيلةٌ مركّبةٌ من الجُود والعدل.

[١٥٣] الحرْصُ: متولّدٌ عن الطّمع، والطّمعُ متولّدٌ عن الحسد، والحسدُ متولّدٌ عن الرّغْبة، والرّغبةُ متولّدةٌ عن الجوْر والشُّحّ والجهل.

(١) في النسخ الأخرىٰ تأتي هذه الفقرة فقرةً مستقلةً نصُّها برقم (٢٣٩) حسب ترتيب الأصل.

وتتولَّدُ من الحِرْصِ رذائلُ عظيمةٌ، منها: الذُّلُّ، والسَّرِقَةُ، والغَضَبُ، والزِّنىٰ، والقتلُ، والعِشْقُ، والهَمُّ بالفَقْرِ، والمَسْأَلةُ لما بأيدي النَّاسِ.

وإنَّما فرَّقنا[1] بين الحِرْصِ والطَّمعِ لأنَّ الحرصَ هو إظهار ما استكنَّ في النَّفْسِ من الطَّمَعِ.

[١٥٤] المداراةُ: فضيلةٌ متركِّبَةٌ من الحِلْمِ والصَّبْرِ.

[١٥٥] الصِّدقُ: مركَّبٌ من العدل، والنَّجْدة.

[١٥٦][2] مَنْ جاءَ إليكَ بباطِلٍ؛ رجعَ من عندكَ بحقٍّ، وذلك أنَّ من نَقَلَ إليك كَذِباً عن إنسانٍ حرَّكَ طِبعكَ فأَجَبْتَهُ؛ فرَجَعَ عنك بحقٍّ. فتحفَّظْ من هذا، ولا تُجِبْ إلَّا عن كلامٍ صَحَّ عندكَ عن قائِلِهِ.

[١٥٧] لا شيءَ أقبحَ من الكذب، وما ظَنُّكَ بعَيْبٍ يكونُ الكُفْر نوعاً من أنواعه. فكلُّ كفرٍ كذبٌ، فالكذبُ جِنْسٌ؛ والكفرُ نوعٌ تَحْتَهُ.

والكذبُ متولِّدٌ من الجَوْرِ، والجُبْنِ، والجهلِ، لأنَّ الجُبْنَ يولِّدُ مهانَةَ النَّفْسِ، والكذَّابُ مَهِينُ النَّفْسِ، بَعِيدٌ من[3]

(١) في الأصل: (تتوَلَّد فيما) بدل: (وإنّما فرّقنا) كما في النُّسخ الأخرىٰ. وما ورد في الأصل له وجه، إذ يمكن قراءة العبارة هكذا: (والمسألةُ لما بأيدي النّاس تتولد فيما بين الحرص والطمّع، لأن...).

(٢) هذه الفقرة من الأصل فقط.

(٣) في (د) و (ي): (عن).

عزّتها المحمُودة[1].

[١٥٨] رأيتُ النَّاس في كلامهم ـ الذي هو فَصْلٌ بينهم، وبينَ الحَمِير والكلاب والحشرات ـ ينقسمونَ أقساماً ثلاثةً:

أحدها: من لا يُبالي فيما أنْفَقَ كلامه، فيتكلَّمُ بكلِّ ما يسبقُ إلىٰ لسانه، غيرَ محقِّقٍ نَصْرَ حقٍّ، ولا إنكارَ باطلٍ، وهذا هو الأغلبُ في النَّاس.

والثَّاني: أن يتكلَّم ناصراً لما وقع في نفسه[2] أنّه حقٌّ، ودافعاً لما توهَّمَ أنَّه باطلٌ، غيرَ محقِّقٍ طلبَ الحقيقة، لكن لجاجاً فيما الْتَزَم، وهذا كثيرٌ، وهو دونَ الأوَّلِ.

والثَّالث: واضعُ الكلام في موضعه، وهذا أعزُّ من الكبريت الأحمر[3].

[١٥٩] لقد طالَ هَمُّ من غَاظَهُ الحقُّ.

[١٦٠] اثنان عَظُمَتْ راحتُهما؛ أحدهما في غاية الحمْد، والآخرُ في غاية الذَّمِّ، وهُما: مطَّرِحُ الدُّنيا، ومُطَّرِحُ الحياء.

(١) وقد استطرد المصنّف ـ رحمه الله ـ في كتابه: «طوق الحمامة» (١٧٣/١ ـ ١٧٩، ط. إحسان عباس) فذكر كلاماً مهماً في ذمّ الكذب وأهله، وهو يتضمن معنىٰ ما ذكره هنا مع زيادة وتفصيل.

(٢) في الأصل و (ب): (بنفسه).

(٣) سار الكيمائيّون العرب في العصر الوسيط علىٰ خطىٰ أرسطو، فهم يقسّمون الكبريت إلىٰ أنواع ثلاثة: أحمر، وأبيض، وأصفر، والأول أندرها، لأنه ـ فيما يزعمون ـ يوجد في مناجم في أرض بعيدة تقع عند مغرب الشمس، قريباً من المحيط، أو خلف [illegible] بوادي النمل، ومن هنا كانت ندرته، ومضرب المثل به (د. مكي).

[١٦١] لَوْ لم يكن من التّزْهيدِ في الدُّنيا إلّا أنّ كلّ إنسانٍ في العالَم؛ فإنَّه كلَّ ليلةٍ إذا نامَ نسيَ كلَّ ما يُشْفِقُ عليه في يقظته، وكلَّ ما يُشْفِقُ منه، وكلَّ ما يَشْرَهُ إليه، فيجده في تلكَ الحال لا يَذْكُرُ ولداً ولا أهلاً، ولا جاهاً ولا خُمُولًا، ولا وِلايةً ولا عزلةً، ولا فَقْراً ولا غنىً، ولا مُصِيبةً، وكفىٰ بهذا واعظاً لمن عَقِلَ.

[١٦٢] من عَجِيبِ تدبير اللّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ للعالم؛ أنَّ كلَّ شيءٍ اشتدَّتْ الحاجةُ إليه كانَ ذلك أهونَ له، وتأمَّلْ ذلك في الماءِ فما فَوْقه، وكلَّ شيءٍ اشتدَّ الغِنا عنه كانَ ذلك أعزَّ له، وتأمَّلْ ذلك في الياقوتِ الأحمر، فما دُونَهُ.

[١٦٣] النَّاسُ في ما يعانُونَهُ كالماشي في الفَلَا[1]، كلَّما قطع أرضاً بَدَتْ له أَرَضُونَ، وكلَّما قضَىٰ المرءُ سبباً حَدَثَتْ له أسبابٌ.

[١٦٤] صَدَقَ من قالَ: إنَّ العاقلَ مُعذَّبٌ في الدُّنيا[2]. وصدَقَ من قالَ: إنَّه فيها مُسْتَرِيحٌ.

فأمَّا تعذِيبُهُ[3] فيما يرىٰ من انتشار الباطلِ، وغَلَبَةِ دُوَله[4]،

(١) في (ب): (فلاةٍ) وهذا مفرد، والأول جمع، وتجمع أيضاً علىٰ: فَلَوات، وهي: الأرض القفر، أو المفازة لا ماء فيها، أو الصحراء الواسعة.

(٢) في النسخ الأخرىٰ: (العاقل في الدنيا متعوب).

(٣) في النسخ الأخرىٰ: (تعبه).

(٤) في النسخ الأخرىٰ: (دوْله).

وبما يُحالُ بينه وبينه من إظهار الحقّ، وأمّا راحتُهُ فمن كلّ ما يهتَمُّ به سائر النّاس من فُضول الدُّنيا.

[١٦٥] إيّاك وموافقة الجليس[1]، ومساعدةَ أهلِ زمانك في ما يضرُّكَ في أُخْراكَ، أو في دُنياكَ، وإنْ قلَّ، فإنَّك لا تستفيدُ بذلك إلَّا النَّدامةَ، حيثُ لا يَنْفَعُكَ النَّدَمُ، ولَنْ يَحْمَدَكَ من ساعدتَهُ، بل يَشْمَتُ [بكَ]. وأقلُّ ما في ذلك ـ وهو المَضْمُونُ ـ أنّه لا يُبالي بسوءِ عاقِبَتِكَ، وفسادِ مَغَبَّتِكَ.

وإيَّاكَ ومخالفةَ الجليسِ، ومعارضةَ أهل زمانِكَ في ما لا يَضُرُّكَ في دنياك، ولا في أُخْراكَ، وإنْ قلَّ فإنَّك تستفيدُ بذلك الأذىٰ والمُنافَرةَ والعداوةَ، وربَّما أدَّىٰ ذلك إلىٰ المطالبة، والضّرر العظيم، دونَ منفعةٍ أصلًا.

[١٦٦] إنْ لم يكنْ بُدٌّ مِنْ إغضابِ النَّاس أو إغضاب اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولم تَكُنْ مَنْدُوحَةٌ عن منافرةِ الحَقِّ، أو منافرة الخَلْقِ؛ فأغضبِ النَّاسَ ونافرهم، ولا تُغْضِبْ ربَّك، ولا تُنافر الحقَّ.

[١٦٧] الاتّساء بالنَّبيِّ ﷺ في وَعْظِ أهل الجهل، والمعاصي، والرّذائل؛ واجبٌ.

فمن وعظ بالجفاء والاكْفهْرارِ؛ فقد أخطأ، وتعدّىٰ

(١) زاد في (س)، و(د)، و(ي): (السّيء)، وهذه زيادة غير جيّدة، كما يظهر بالتأمّل.

طريقتهُ ﷺ وصار في أكثر الأمر مُغرياً للموعوظ بالتمادي علىٰ أمره؛ لَجاجاً، وحَرَداً[1]، ومغايَظَةً للواعظ الجافي، فيكونُ في وعظه مُسِيئاً لا مُحْسِناً.

ومن وعظَ ببِشْرٍ وتبسُّمٍ ولينٍ وكأنَّه مُشِيرٌ برأيٍ، ومُخْبِرٌ عن غيرِ المَوْعُوظِ بما يُسْتَقْبَحُ من الموعوظ، فذلك أبلغُ وأنْجَعُ في الموعظة.

فإنْ لم يتقبَّلْ فلْيَنْتَقِل إلىٰ الموعظة بالتَّحْشِيمِ[2]، وفي الخلاء[3].

فإنْ لم يَقْبَلْ ففي حَضْرةِ من يَسْتحي منه المَوْعُوظُ.

فهذا أدبُ اللَّهِ ـ تعالىٰ ـ في أمره بالقولِ اللَّيِّنِ، وكانَ ﷺ لا يواجِهُ بالموعظة لكنْ كانَ يقولُ: «ما بالُ أقوامٍ يَفْعَلُونَ كذا»[4].

---

(١) أي: غضباً. وفي (س) و (د) و (ي): (حَرَجاً).

(٢) تفعيل من الحشْمة، وهي: الحياء والانقباض. حَشَمَهُ، وأحشَمَه: أخجلَهُ، وأن يجلس إليك الرّجل فتؤذيه، وتسمعه ما يكره «القاموس».

(٣) أي: ينفرد به، ولا يجعل ذلك أمام الناس.

(٤) روىٰ أبو داود (٤٧٨٨) من طريق: عبدالحميد الحمانيّ، قالَ: حدَّثنا الأعمشُ، عن: مسلم أبي الضُّحىٰ، عن: مسروقٍ، عن: عائشةَ ـ رضيَ الله عنها ـ قالتْ: كانَ النبيُّ ﷺ إذا بلغه عن الرَّجُلِ الشَّيءُ؛ لم يَقُلْ: ما بالُ فلانٍ يقولُ؟! ولكنْ يقولُ: «ما بالُ أقوامٍ يقولونَ كذا وكذا؟!». وهذا إسنادٌ حسنٌ، رجالُه رجالُ الشَّيْخَيْنِ، غير أنَّ الحِمانيَّ فيه كلامٌ، وهو صدوقٌ حسنُ الحديثِ، ولم يخرِّج له مسلمٌ إلَّا في: «المقدمة». والحديثُ؛ أورده الألبانيُّ ـ رحمه الله ـ في: «الصَّحيحة» (٢٠٦٤)، وفي: «صحيح أبي داود» (١٧٦/٣، ط: المعارف)؛ وقال: صحيح.
قال عبدُالحق: وفي النَّفس من صحّة هذا السِّياق شيءٌ، فقد خالف الحمانيَّ؛ ستةٌ من الثِّقات الأثبات، وهم:

وقد أثنىٰ ـ عليه السَّلامُ ـ علىٰ الرِّفْق[1]، وأمر بالتَّيْسِيرِ، ونهىٰ عن

= ـ أبو معاوية الضَّرير ـ قال وكيع بن الجراح: ما أدركنا أعلمَ بأحاديث الأعمش منه ـ، أخرجه: أحمدُ ٤٥/٦، ومسلم (٢٣٥٦).
ـ حفصُ بن غياث ـ قال يحيىٰ القطان: أوثق أصحاب الأعمش؛ حفصٌ ـ، أخرجه: البخاريُّ (٦١٠١، ٧٣٠١)، وفي: «الأدب المفرد» (٤٣٦)، ومسلم (٢٣٥٦).
ـ عيسىٰ بن يونس ـ وكانَ لا يفارق الأعمشَ ـ، أخرجه: إسحاقُ بن راهويه (١٤٥٨)، ومسلم (٢٣٥٦).
ـ سفيانُ الثَّوري، أخرجه: أحمد ١٨١/٦، والنَّسائيُّ في: «الكبرىٰ» (١٠٠٦٣)، وابن خزيمة (٢٠١٥، ٢٠٢١).
ـ جرير بن عبدالحميد، أخرجه: مسلم (٢٣٥٦)، والبيهقي (٥١٩٨).
ـ ويحيىٰ القطَّان، أخرجه: أبو يعلىٰ (٤٩١٠).
فرووه ـ كلُّهم ـ عن الأعمش؛ به، بلفظ: صنعَ النَّبيُّ ﷺ شيئاً، فرخَّص فيه، فَتَنَزَّهَ عنه قومٌ، فبلَغَ ذلكَ النَّبيَّ ﷺ، فخَطَبَ، فحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قالَ: «ما بالُ أقوامٍ يَتَنَزَّهُونَ عن الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟! فوالله إنِّي لأَعْلَمُهُم بالله، وَأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً».
قلتُ: وكما هو ظاهرٌ؛ فإنَّ بين اللَّفْظَيْنِ فرقاً كبيراً، فالأوَّلُ: يدلُّ بظاهره أنَّه كان لا يواجِهُ بالموعظة دائماً، والثَّاني: لا يدلُّ إلَّا علىٰ وقوع ذلك اتِّفاقاً، وقد بوَّب الإمامُ البخاريُّ علىٰ الحديثِ بقوله: «مَنْ لم يُواجِه النَّاس بالعِتَابِ». نعم؛ قد ثبت في أحاديثَ كثيرةٍ استعمالُ لنَّبيِّ ﷺ لهذه الصِّيغَةِ ونحوها في مناسباتٍ عديدةٍ، وأمَّا أنْ يكونَ ﷺ كانَ يَلْتَزِمُ ذلكَ دائماً؛ ففيه نَظَرٌ، ولا يخفىٰ أنَّ الموعظةَ والنَّصِيحَةَ تختلفُ أساليبها حسب الزَّمان والمكان والأشخاص، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، وقد تكونُ للمواجهة الصَّريحة الواضِحَة فائدةٌ عظيمةٌ، كما في حديث وائلِ بن حُجْرٍ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ ساعِياً، فأتىٰ رجلاً، فآتاه فَصيلاً مَخْلولاً، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «بَعَثْنا مُصَدِّقَ اللّهِ ورَسُولِهِ! وإنَّ فلاناً أعطاه فصيلاً مخلولاً، اللَّهمَّ لا تُبارِكْ فِيه، ولا في إبلِهِ!». فبلغَ ذلكَ الرَّجُلَ، فجاءَ بناقةٍ حسناء، فقال: أتوبُ إلىٰ اللَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإلىٰ نَبِيِّهِ ﷺ. فقالَ النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ باركْ فيه، وفي إبلِه». رواه النسائيُّ ٣٠/٥، بإسنادٍ صحيح. وقد ذكرَ الحافظُ المزِّيُّ في: «تحفة الأشراف» (١٧٦٤٩)، أنَّ حديثَ الحمانِّيِّ مختصرٌ من حديث الجماعة الذي تقدم ذكره، فيظهر أنَّه اختصرهُ اختصاراً مُخِلًّا بالمعنىٰ، ولقد كان الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ دقيقاً عندما وصف الحمَّانيّ بقوله: «صدوق يخطئ» (التقريب: ٣٧٧١)، والله أعلم.

(١) فقال ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ الرِّفقَ في الأمر كلِّه» (صحيح البخاري: ٦٠٢٤)،

التَّنفير(١)، وكانَ يتخوّلُ بالمَوْعِظَةِ خوفَ المَللِ(٢). وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وأمّا الغِلْظَةُ والشِّدَّةُ؛ فإنَّما تجبُ في حدٍّ من حُدُودِ اللَّهِ - تعالىٰ - فلا لِينَ في ذلكَ؛ للقادر علىٰ إقامةِ الحَدِّ - خاصَّةً -(٣).

[١٦٨] ومِمَّا يَنْجَعُ في الوعظ - أيضاً - الثناءُ بحضرة المسيء علىٰ من فَعَلَ خلافَ فِعْلِه، فهذا داعيةٌ إلىٰ عملِ الخَيْرِ. وما أَعْلَمُ لِحُبِّ المدح فضلًا إلَّا هذا وَحْدَهُ، وهو أنْ يَقْتَدي به من يَسْمَعُ الثَّناء، ولهذا يجبُ أنْ تُؤَرَّخَ الفضائلُ والرَّذائلُ لِيَنْفُرَ سامعها عن

وقال: «إنَّ الرِّفق لا يكون في شيءٍ إلّا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلّا شانه» (صحيح مسلم: ٢٥٩٤)، وقال: «مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ؛ حُرِمَ الخَيْرَ» (صحيح مسلم: ٢٥٩٢).

(١) فقال ﷺ: «يَسِّروا ولا تعسِّروا، وبَشِّروا (وفي روايةٍ: وسَكِّنوا) ولا تُنَفِّروا» أخرجه البخاري (٦٩) و (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤). وراجع الفقرة المتقدمة برقم (١١٩).

(٢) أخبر بذلك: عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال: كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كَراهةَ السَّآمةِ علينا. أخرجه البخاري (٦٨) ومسلم (٢٨٢١). ويتخوَّلُ، أي: يتعَهَّدُ. والمعنىٰ: أنه كان يراعي الأوقات في التذكير والموعظة، فلا يفعل ذلك كل يوم لئَلَّا يملُّوا.

(٣) تأمَّل كيف أنَّ الإمامَ ابنَ حزم رحمه الله؛ قيَّد الغِلْظة والشدَّة بباب الحدود أوّلًا، ثمَّ بالقدرة علىٰ إقامتها ثانياً، وهذا هو الصَّواب؛ الذي تقتضيه أصول الشريعة ومقاصدها. وقد نبتتْ بين المسلمين نابتة من الشَّباب يستعملون الشّدة والغلظة ليس فقط في هذا الباب؛ بل في جميع أبواب الدّعوة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، مع أنهم غير مؤهلين لذلك، لا من جهة العلم الشرعي، ولا من جهة القدرة والقوّة، ولا من جهة الفضل والمنزلة، فصاروا بذلك سبباً للإفساد من حيث أرادوا الإصلاح، وللشَّرِّ من حيث أرادوا الخير، نسأل الله تعالىٰ أن يصلحهم، ويهديهم لسبيل الحقّ والرّشاد.

القبيح المأثور عن غيره، ويرْغَب في الحَسَنِ المنقول عن من تقدَّمه، ويتَّعظ بما سلف.

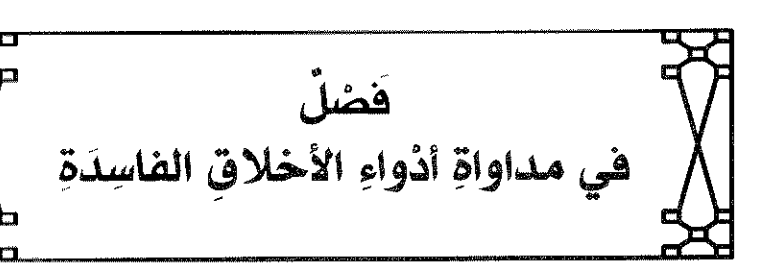
[١٦٩] تأمَّلْتُ كلَّ ما دون السماءِ، وطالتْ فيه فِكْرتي، فوجدتُ كلَّ شيءٍ فيه - من حيٍّ، وغيرِ حيٍّ - من طَبْعِهِ - إنْ قوي - أنْ يخلَعَ غيره من الأنواع كيفيَّاتِهِ، ويُلْبِسَهُ صِفاتِهِ. فترىٰ الفاضل يودُّ لو كانَ النَّاسُ فضلاءَ، وترىٰ النَّاقص يودُّ لو كانَ النَّاس نُقَصاءَ، وترىٰ كلَّ من ذكر شيئاً - يَحُضُّ عليه - يقولُ: وأنا أفعل أمراً كذا. وكلُّ ذي مذهبٍ يودُّ لو كانَ النَّاسُ موافِقينَ له. وترى ذلك في العناصر إذا قوي بعضها علىٰ بعضٍ أحاله إلىٰ نوعيّته، وترىٰ ذلك في تركيبِ الشَّجَرِ، وفي تغذِّي النباتِ والشَّجر بالماءِ، ورُطُوبة الأرض وإحالتهما ذلك إلىٰ نوعيَّتهما، فسبحانَ مُخْترِعِ ذلكَ ومدبِّره، لا إلٰه إلَّا هو.

[١٧٠] مِنْ عجيبِ قُدْرةِ اللَّهِ - تعالىٰ - كَثْرَةُ الخَلْقِ، ثُمّ لا ترىٰ أحداً يُشْبِهُ آخرَ شَبَهاً لا يكون بينهما فَرْقٌ [فيه]. وقد سألتُ من طالَ عُمُرُهُ، وبلغَ الثَّمانينَ عاماً هل رأىٰ الصُّورَ فيما خلا مُشْبِهَةً لهذه شَبَهاً واحداً، فقالَ لي: لا، بل لكلِّ صورةٍ فرقُها. وهكذا كلُّ ما في العالَم، يعرفُ ذلكَ من تدبَّر الآلات، وجميع الأجسام المركَّبات، وطالَ تكرُّرُ بصره عليها فإنَّه - حينئِذٍ - يُميِّزُ ما بَيْنَها، ويعْرِفُ بعضَها من بعضٍ بفروقٍ فيها، تَعْرِفُها النَّفْسُ، ولا يقدر أحدٌ يُعبِّرُ عنها بلسانه، فسبحانَ القديرِ الحكيم؛ الَّذي لا تتناهىٰ مقْدوراتُهُ.

[١٧١][1] من عجائب الدُّنيا قومٌ غلبتْ عليهم آمالٌ فاسدةٌ لا يُحَصِّلُونَ منها إلَّا علىٰ إتعابِ النَّفْسِ عاجلًا، ثُمَّ الهمَّ والإثمَ آجلًا، كمن يتمنَّىٰ غلاءَ الأقوات التَّي في غلائها هلاكُ النَّاس، وكمن يتمنَّىٰ بعض الأمور الَّتي فيها الضَّرَرُ لغيره، وإنْ كانت له فيها مَنْفَعَةٌ؛ فإنَّ تأمِيلَهُ ما يُؤَمِّلُ من ذلكَ لا يُعَجِّلُ له ذلكَ قبل وقتِهِ، ولا يأْتِيه من ذلكَ بما ليسَ في علمِ اللَّهِ ـ تعالىٰ ـ تكوُّنُهُ، فلو تمنَّىٰ الخيرَ والرَّخاءَ لتعجَّلَ الأجرَ والرَّاحة والفضيلة، ولم يُتْعِبْ نفسَهُ طرفةَ عينٍ فما فوقها. فاعْجَبُوا لفسادِ هذه الأخلاقِ بلا مَنْفَعةٍ!



(١) هذه الفقرة من الأصل فقط.



فَصْلٌ
في مداواةِ أدْواءِ الأخلاقِ الفاسِدَةِ

[١٧٢] من امتُحِنَ بالعُجْبِ فليفكِّرْ في عُيُوبه. فإنْ أُعْجِبَ بفضائِله فليفتِّشْ ما فيه من الأخلاقِ الدَّنِيَّةِ، فإنْ خَفِيَتْ عليه عيوبه جملةً حتَّىٰ يظنَّ أنَّه لا عَيْبَ فيه؛ فليعلم أنَّها مصيبةُ الأبد، وأنَّه أتمُّ النَّاس نقصاً، وأعظمهم عيوباً، وأضعفهم تمييزاً، وأوَّلُ ذلك؛ أنَّه ضعيفُ العقلِ، جاهلٌ، ولا عيبَ أشدَّ من هٰذَيْنِ، لأنَّ العاقل هو من ميَّزَ عيوبَ نفسه فغالَبَها، وسعىٰ في قَمْعِها، والأحمقُ هو الذي يَجْهل عيوبَ نفسه، إمَّا لقلةِ عِلْمه وتَمْييزه، وضعف فكْرته، وإمَّا لأنَّه يُقَدِّرُ أنَّ عيوبه خِصالٌ[1]، وهذا أشدُّ عيبٍ في الأرض وفي النَّاس كثيرٌ يَفْخرون بالزِّنىٰ، واللِّياطة[2]، والسَّرقة، والظُّلم، فيعجبُ بتأتِّي هذه النُّحوسِ له، وبقوَّته علىٰ هذه المخازي.

واعْلَمْ ـ يقيناً ـ أنَّه لا يَسْلَمُ إنْسِيٌّ من نقصٍ حاشا الأنبياء ـ

(١) أي: صفات حسنة. والخَصْلة: الخلّة، فضيلةً كانت أو رذيلةً، لكن قد غلب علىٰ الفضيلة كما في استعمال المصنّف.

(٢) من لاط الرجل لواطاً، ولاوط، أي: عمل عمل قوم لوط.
وانظر التعليق الآتي علىٰ الفقرة: (١٨٤).

صلواتُ الله [تعالىٰ، وسلامه] عليهم ـ، فمنْ خُفيت عليه عيوبُ نفسه فقد سَقَطَ، وصارَ من السُّخْفِ، والضَّعَةِ، والرَّذالةِ، والخِسَّةِ، وضَعْفِ التَّمْييز والعقلِ، وقِلَّةِ الفَهْمِ؛ بحيثُ لا يتخلَّفُ عنه متخلِّفٌ من الأَرْذالِ[1]، وبحيثُ ليس تَحْتَهُ منزلةٌ من الدَّناءَةِ، فليتدارَكْ نفسه بالبحثِ عن عُيُوبِهِ، والاشتغالِ بذلكَ من الإعجابِ بها، وعن عيوبِ غَيْرِهِ الَّتي لا تَضُرُّهُ لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة.

وما أدري لسماع عيوبِ النَّاسِ خَصْلةً سوىٰ الاتِّعاظِ بما يَسْمَعُ المرءُ منها، فَيَجْتَنِبُها ويَسْعىٰ في إزالة ما فيه منها، بحولِ الله ـ تعالىٰ ـ وقوَّته.

[١٧٣] وأمَّا النُّطْقُ بعيوبِ النَّاسِ؛ فعيبٌ كبيرٌ لا يسوغُ أصلًا، والواجبُ اجتنابُهُ إلَّا في نصيحةِ من يُتَوَقَّعُ عليه الأذىٰ بمداخلة المَعِيبِ، أو على سبيل تَبْكِيتِ المُعْجَبِ ـ فقط ـ في وَجْهِهِ، لا خَلْفَ ظَهْرِهِ.

ثُمَّ يقولُ للمُعجَب: ارْجِعْ إلىٰ نفسك فإذا مَيَّزْتَ عيوبها؛ فقدْ داوَيْتَ عُجْبَكَ، ولا تُمَثِّلْ بين نفسِكَ وبينَ من هو أكثرُ عيوباً منها؛ فَتَسْتَسْهِلُ الرَّذائِلَ، وتكونُ مقلِّداً لأهلِ الشَّرِّ، وقد ذُمَّ تقليدُ أهل الخيرِ، فكَيْفَ تقليد أهلِ الشَّرِّ، لكن مَثِّلْ بين نفسِكَ وبين مَنْ هو أفضل منكَ فحِينَئِذٍ يَتْلَفُ عُجْبُكَ، وتفيقُ من هذا الدَّاءِ القبيح الذي يولِّدُ عليكَ الاستخفافَ بالنَّاسِ، وفيهم بلا شكٍّ من هو خَيْرٌ

(١) في (ب): (لا يختلف عنه مُخْتلفٌ من الإدراك).

منكَ، فإذا استخْفَفْتَ بهم بغَير حقٍّ استخفُّوا بكَ بحقٍّ، لأنَّ اللّه ـ تعالىٰ ـ يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٣٨]، فتولِّدُ علىٰ نفسِكَ أنْ تكون أهلًا للاسْتِخْفافِ بكَ علىٰ الحقيقة؛ مع مَقْتِ اللّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، وطَمْسِ ما فِيكَ من فضيلةٍ.

[١٧٤] فإنْ أُعْجِبْتَ بعقلك؛ ففكِّر في كلِّ فكرةِ سوءٍ تمُرُّ بخاطرِكَ، وفي أضاليلِ الأماني الطَّائِفَةِ بك، فإنَّك تَعْلَمُ نقص عقلِكَ حِينَئِذٍ.

[١٧٥] وإنْ أُعْجِبْتَ بآرائِكَ؛ فتفكَّر في سَقَطاتِك، واحْفَظْها، ولا تَنْسَها، وفي كلِّ رأيٍ قدَّرْتَهُ صواباً فخرجَ بخلاف تَقْدِيرِكَ، وأصابَ غيرُكَ، وأخطأتَ أنتَ، فإنَّك إنْ فعلتَ ذلك؛ فأقلُّ أحوالِكَ أنْ يوازِنَ سُقُوطُ رأيِكَ صوابَهُ[1]، فتخرُجَ لا لك ولا عليكَ، والأغلبُ أنَّ خطأَكَ أكثرُ مِن صوابِكَ، وهكذا كلُّ أحدٍ من النَّاسِ بعد النَّبِيِّينَ ـ صلواتُ الله عليهم ـ.

[١٧٦] وإنْ أعجبتَ بعَمَلِكَ[2] فتفكَّر في معاصيكَ، وفي تقصيرِكَ، وفي معاشِكَ، ووجُوهِه، فواللّهِ لتجدنَّ من ذلك ما يَغْلِبُ علىٰ خَيْرِكَ، ويُعَفِّي علىٰ حسناتك، فيطولُ همُّكَ حينئذٍ، وأَبْدِلْ من العُجْبِ تَنَقُّصاً لنفسِكَ.

[١٧٧] وإنْ أُعْجِبْتَ بعِلْمِكَ؛ فاعلمْ أنَّه لا خَصْلَةَ لك فيه، وأنَّه مَوْهِبَةٌ مجرَّدةٌ وهبك إيَّاها ربُّكَ ـ تعالىٰ ـ فلا تُقابلها بما

(١) في الأصل: (أن تُوازِنَ سقوط رأيك بصوابه).
(٢) في (ب): (بعملك بخيرك)، وفي (س) و(د) و(ي): (بخيرك).

يُسخِطُهُ، فلعلَّهُ يُنسِيك ذلك بعِلَّةٍ يَمْتَحِنُكَ بها، تولّدَ عليك نِسْيان ما قد علمتَ وحَفِظْتَ.

ولقد أخبرني[1] عبدُالملكِ بن طَرِيفٍ[2] ـ وهو مِنْ أهلِ العِلْمِ والذَّكاءِ، واعْتِدالِ الأحوالِ، وصِحَّةِ البحث ـ أنَّه كانَ ذا حظٍّ من الحِفظِ عظيمٍ، لا يكادُ يَمُرُّ علىٰ سمعه شيءٌ يحتاجُ إلىٰ اسْتِعادَتِهِ، وأنَّه رَكِبَ البحر فمرَّ به فيه هَوْلٌ شديدٌ أنساهُ أكثرَ ما كانَ يَحْفَظُ، وأخلَّ بقوة حِفْظِهِ إخلالاً شديداً، لم يُعاوِدْهُ ذلك الذَّكاء بَعْدُ.

وأنا أصابَتْنِي عِلَّةٌ فأفَقْتُ منها؛ وقد ذَهَبَ ما كنتُ أحفظُ إلَّا ما لا قَدْرَ له، فما عاوَدْتُهُ إلَّا بعدَ أعوامٍ.

واعلم أنَّ كثيراً من أهلِ الحِرْصِ علىٰ العلم يَجِدُّونَ في القراءة، والإكباب علىٰ الدَّرسِ والطَّلَبِ، ثمَّ لا يُرْزَقونَ منه حظّاً،

(١) في (ب): (أُخبرتُ عن).

(٢) رجَّحَ الدكتورُ إحسان عباسٌ أنَّه: أبو مروان عبدالملك بن طريف، من أهل قرطبة، وكان لغوياً نحوياً، أخذ عن ابن القوطيَّة، وألّف كتاباً حسناً في الأفعال، وتوفي في نحو الأربع مئة (الصلة: ٣٤٠، بغية الوعاة: ١١/٢).
قلتُ: وهذا التَّرجيح قويٌّ بالنَّظر إلى اعتماد الدكتور نصِّ (ب): (أُخْبرتُ عن)، ممَّا يدلُّ علىٰ وجودِ واسطةٍ بينَ ابن حزمٍ وبينَ هذا الشَّيخ الذي توفي وعُمُرُ ابن حزمٍ أقلُّ من ١٦ سنة. لكن يعكِّرُ علىٰ هذا أنَّ المصنِّف قد وصفه بقوله: «وهو من أهل العلم. . .» وهذا يدلُّ علىٰ معرفةٍ تامَّةٍ، وصلةٍ أكيدةٍ به، بل يمكننا أن نستنتج منه أنَّه كان حيّاً وقت تأليف هذا الكتاب؛ إذ أنَّ من عادة ابن حزم أن يذكر المتوفَّيْنَ من أشياخه، وأصحابه، بصيغة الماضي، ويترحَّم عليهم، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه ألَّف هذا الكتاب بعد مدَّةٍ طويلةٍ من وفاة هذا الشَّيخ. فهل المذكور شخصٌ آخر غير هذا الشيخ؟ لا أدري!
وقد كان يفترض بالدكتور مكّي أن يثير هذا التساؤل في تعليقه علىٰ هذا الكتاب، خاصّةً أنّه يذهب إلىٰ أنّ ابن حزم قد ألّفه في الأعوام الأخيرة من حياته، ولكنه لم يفعل، مع أنّه اعتمد صيغة السّماع المباشر!

فلْيَعْلَمْ ذو العلم أنَّه لو كانَ بالإكْباب ـ وحده ـ لكانَ غيرُه فوقَهُ، فصَحَّ أنَّه موْهِبَةٌ من الله ـ تعالىٰ ـ فأيُّ مكانٍ للعُجْبِ هاهُنا، ما هذا إلَّا موضعُ تواضعٍ، وشُكْرٍ لله ـ تعالىٰ ـ، واسْتِزادةٍ من نعمه، واستعاذَةٍ من سَلْبِها.

ثُمَّ تفكَّر ـ أيضاً ـ في أنَّ ما خُفِيَ عنك، وجَهِلْتَهُ من أنواع العلوم، ثُمَّ من أصناف عِلْمِكَ الذي تَخْتَصُّ به، والذي أعْجبْت بنفاذِكَ فيه؛ أكثرُ مِمَّا تَعْلَمُ من ذلك، فاجعلْ مكانَ العُجْب استنقاصاً لنفسك، واسْتِقْصاراً لها، فهو أولىٰ، فتفكَّر في من كانَ أعلمَ منكَ، تَجِدهُمْ كثيراً، فلتَهُنْ نفسُكَ عندك حينَئِذٍ، وتفكَّر في إخْلالك بعلمك، وأنَّكَ لا تَعْمَلُ بما عَلِمْتَ منه؛ فلَعِلْمُكَ عليك حُجَّةٌ حينئذٍ، ولقد كانَ أَسلمَ لكَ لو لَمْ تكُنْ عالماً، واعلمْ أنَّ الجاهلَ ـ حينئذٍ ـ أعقلُ منكَ، وأسلمُ حالاً، وأعذرُ، فلْيَسْقُطْ عُجْبُكَ بالكلّية.

ثُمَّ لعلَّ عِلْمَكَ الذي تَعْجَبُ بنفاذِكَ فيه من العلوم المتأخِّرة التي لا كبيرَ خَصْلَةٍ فيها، كالشِّعْرِ، وما جرىٰ مجراه، فانْظُرْ ـ حينَئِذٍ ـ إلىٰ من عِلْمُهُ أجلُّ من عِلْمِكَ، في مراتب الدُّنيا والآخرة، فتَهُونُ نَفْسُكَ عليك.

[١٧٨] وإنْ أُعجبتَ بشجاعتك؛ فتفكَّر فيمن هو أشجعُ منك، ثُمَّ انْظُرْ في تلك النَّجْدَةِ التي منَحَك اللَّهُ ـ تعالىٰ ـ فيما صَرَفْتَها، فإنْ كنت صرفتها في معصيةٍ؛ فأنتَ أحمقُ، لأنَّك بذلت نفسك فيما ليس بثمنٍ لها، وإنْ كنتَ صرفتها في طاعةٍ؛ فقد أفسدْتَها بعُجْبك، ثُمَّ تفكَّر في زوالها عنك بالشَّيخ، وأنَّك إنْ

عشت فستصيرُ في عدد العيال، وكالصّبيّ ضعفاً. علىٰ أنّي ما رأيتُ العجبَ في طائفةٍ أقلَّ منه في أهل الشَّجاعةِ، فاسْتَدْلَلْتُ بذلك علىٰ نزاهةِ أنفُسِهم، ورِفْعَتِها، وعُلُوِّها.

[١٧٩] وإن أعجبتَ بجاهك في دنياك؛ فتفكَّر في مُخالفِيك، وأندادِك، ونُظَرائِك، ولعلَّهم أخِسَّاءُ وُضَعاءُ سُقَّاطٌ، فاعلَمْ أنَّهم أمثالُكَ في ما أنتَ فيه، ولعلَّهم ممَّن يُسْتَحىٰ من التَّشَبُّهِ بهم لفرط رَذالَتِهم، وخَسَاسَتِهم في أَنْفُسِهم وأَخْلاقهم ومَنابِتِهم، فاسْتَهِنْ بكلِّ منزلةٍ شارَكَكَ فيها من ذكرتُ لك، وإنْ كنتَ مالِكَ الأرضِ ـ كلِّها ـ ولا مخالِفَ عليك، وهذا بَعيدٌ جدّاً في الإمكان، فما نعلَمُ أحداً مَلَكَ مَعْمُورَ الأرضِ ـ كلَّه ـ علىٰ قِلَّتِهِ، وضيق مساحته؛ بالإضافةِ إلىٰ غامرِها، فكيفَ إذا أُضِيفَ إلىٰ الفَلَكِ المُحِيط. فتفكَّر فيما قالَ ابنُ السَّمَّاكِ للرَّشِيدِ ـ وقد دعا بحَضْرَتِهِ بقَدَحٍ فيه ماءٌ ليشربه ـ فقالَ لَهُ: يا أَمِيرَ المؤمنينَ! فَلَوْ مُنِعْتَ هذه الشُّرْبَةَ؛ بكَمْ كنتَ ترضىٰ أنْ تَبْتاعَها؟! فقالَ له الرَّشِيدُ: بِمُلْكي كلِّه. قالَ لَهُ: يا أَميرَ المُؤمِنينَ! فلو مُنِعْتَ خُرُوجَها منكَ بِكَمْ تَرْضىٰ [أنْ] تَفتدي من ذلك؟! قال: بِمُلْكي كلِّه. قالَ: يا أَمِيرَ المُؤْمنينَ! أَتَغْتَبِطُ بِمُلْكٍ لا يُساوي بَوْلَةً، ولا شَرْبَةَ ماءٍ؟![1] وصَدَقَ ابنُ السَّمَّاكِ ـ رَحِمَهُ اللّه ـ.

(١) رواه الدِّينَوَرِيُّ في: «المُجالسة وجواهر العلم» (٧٧٦)، وابنُ السَّمَّاك، هو: الزّاهد، القدوة؛ أبو العباس محمّد بن صَبيح العجلي الكوفي، المتوفىٰ سنة (١٨٣هـ)؛ ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٨/٣٢٨ و «تاريخ الإسلام» (وفيات ١٨١ ـ ١٩٠، ص: ٣٦٧).

وإنْ كنت ملك المسلمين ـ كلِّهم ـ فاعلمْ أنَّ ملك السُّودان ـ وهو أسْوَدُ، رذلٌ، مكْشُوفُ العوْرة، جاهِلٌ ـ يَمْلِكُ أوسع من مُلْكِكَ. فإنْ[1] قلت أنا أخذتُهُ بحقٍّ، فلَعَمْري ما أخَذْتَهُ بحقٍّ؛ إذ استعملتَ فيه رذيلةَ العُجْبِ، وإذا لم تَعْدلْ فيه فاسْتَحي[2] من حالِكَ، فهي حالةُ رَذالةٍ، لا حالةٌ يَجِبُ العُجْبُ بها.

[١٨٠] وإنْ أُعجِبتَ بمالك؛ فهذه أَسْوَأُ مراتِبِ العُجْب، فانْظُرْ في كلِّ ساقطٍ خَسِيسٍ؛ هو أغنىٰ منك، فلا تَغْتَبِطْ بحالةٍ يَفُوقُكَ فيها من ذَكَرْتُ، واعلم أنَّ عُجْبَكَ بالمال حُمْقٌ لأنَّه أحجارٌ لا تَنْتَفِعُ بها إلَّا بأنْ تُخْرِجَها عن مُلْكِكَ بنفقَتِها في وَجْهِها فقطْ، والمالُ ـ أيضاً ـ غادٍ ورائِحٌ، وربَّما زالَ عنك، ورأيْتَهُ بعَيْنِه في يد غيرك، ولعلَّ ذلك يكون في يدِ عدوِّكَ، فالعُجْبُ بمِثْلِ هذا؛ سُخْفٌ، والثِّقةُ به غرورٌ وضَعْفٌ.

[١٨١] وإنْ أعجبت بحُسْنِكَ؛ ففكِّر في ما يُولِّدُ عليك ممّا نَسْتَحي نحنُ من إثباتِه، وتَسْتحي أنتَ منه إذا ذَهَبَ عنك بدخُولك في السِّنِّ، وفيما ذكرنا كفايةٌ.

[١٨٢] وإنْ أُعجبتَ بمَدْحِ إخوانِكَ لك؛ ففكِّر في ذمِّ أعدائِكَ إيَّاكَ، فَحِينَئِذٍ يَنْجلي عنك العُجْبُ، فإنْ لم يكن لك عدوٌّ فلا خَيْرَ فيك، ولا منزلةَ أسقطَ من منزلةِ من لا عدُوَّ له، فليست

(١) في الأصل: (وإن).
(٢) كذا في جميع النسخ، والمشهور في مثل هذا الموضع حذف الياء، لكن لإثباته وجه في اللغة.

إلّا منزلةَ من ليس لله ـ تعالىٰ ـ عنده نِعْمةٌ يُحْسَدُ عليها، عافانا اللّٰهُ.

فإن استحقرتَ عيوبَكَ ففكِّر فيها لو ظهرتْ إلىٰ النَّاسِ، وتَمَثَّل اطِّلاعُهُمْ عليها، فحِينَئِذٍ تَخْجَلُ، وتَعْرِفُ قَدْرَ نَقْصِكَ؛ إنْ كانتْ لك مُسْكَةٌ من تَمْيِيزٍ.

[١٨٣] واعْلَمْ بأنَّك إنْ تعلَّمْتَ كيفيةَ تركيبِ الطَّبائِع، وتولُّدِ الأخلاقِ، من امتزاجِ عناصرها المَحْمُولةِ في النَّفس، فستَقِفُ من ذلك ـ وقوفَ يقينٍ ـ علىٰ أن فَضَائِلَكَ لا خَصْلَةَ [لك] فيها، وأنَّها مِنَحٌ من الله ـ تعالىٰ ـ لو مَنَحَها غَيْرَكَ لكانَ مِثْلَكَ، وأنَّك لو وُكِّلْتَ إلىٰ نفسِكَ؛ لَعَجَزْتَ وهَلَكْتَ، فاجْعَلْ بَدَلَ عُجْبِكَ بها حَمْداً[١] للواهب لك إيَّاها وإشْفاقاً من زَوالِها ـ فقد تتغَيَّرُ الأخلاقُ الحميدةُ بالمَرَضِ، وبالفَقْرِ، وبالخَوْفِ، وبالغَضَبِ، وبالهَرَمِ ـ وارحَمْ مَنْ مُنِعَ ما مُنِحْتَ، ولا تتعرَّضْ لزوالِ ما بِكَ من النِّعَمِ بالتَّعاطي[٢] علىٰ واهبها ـ تعالىٰ ـ، وبأنْ تَجْعلَ لنفسك فيما وَهَبَ خَصْلَةً، أو حقّاً، فتقدِّر أنَّك استغنيتَ عن عِصْمَتِهِ فتَهْلِكَ عاجلاً وآجلاً.

ولقد أصابَتْني عِلَّةٌ شديدةٌ، ولَّدتْ عليَّ رَبْواً في الطِّحالِ شديداً[٣]، فولَّد ذلكَ عليَّ من الضَّجَرِ، وضِيقِ الخُلُقِ، وقِلَّةِ

(١) في (س)، (د) و (ي): (شكراً).

(٢) أي: بالجرأة، وتناول ما لا يحق. وفي: (س) و(د) و(ي): (بالتعاصي).

(٣) الرّبو هو الانتفاخ، فلعلّ ذلك كان التهاباً في الطّحال.

الصَّبْرِ، والنَّزَقِ[١]، أمراً حاسبْتُ نفسي فيه، إذ أنكرتُ تبدُّلَ خُلُقي، واشتدَّ عجبي من مفارقتي لطَبْعي، وصَحَّ عندي أنَّ الطِّحال موضعُ الفرح؛ فإذا فسد تولَّد ضِدُّه[٢].

[١٨٤] وإنْ أُعجبتَ بنَسَبِكَ؛ فهذه أَسْوَأُ من كلِّ ما ذكرنا، لأنَّ هذا الذي أعجبتَ به لا فائدةَ له أصلًا في دُنْيا ولا آخرةٍ، وانْظُرْ هل يَدْفَعُ عنك جَوْعَةً، أو يَسْتُرَ لك عورةً، أو يَنْفعُكَ في آخرتك. ثُمَّ انظر إلىٰ من يُسَاهِمُكَ في نَسَبِكَ وربَّما فيما هو أعلىٰ منه مِمَّنْ نالَتْهُ ولادةُ الأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ، ثُمَّ ولادةُ الخُلفاء، ثُمَّ ولادةُ الفُضلاءِ من الصَّحابة والعُلَماءِ، ثُمَّ ولادةُ مُلوك العجم من الأَكاسِرةِ، والقَياصِرةِ، ثُمَّ ولادة التَّبابِعَة، وسائر ملوك الإسلام، فتأمَّلْ غُبَّراتِهِم [وبقاياهُمْ]، ومَنْ يدلي بمِثْلِ ما تدلي به من ذلكَ؛ تَجِد أكثرَهُمْ أمثالَ الكلابِ خساسةً، وتَلْقَهُم في غاية السُّقوطِ والرَّذالةِ والتَّبَدُّلِ[٣]، والتَّحلِّي بالصِّفاتِ المَذْمُومة، فلا تَغْتَبِطْ بمنزلةٍ هُم فيها نُظَراؤُكَ أو فَوْقَكَ. ثُمَّ لعل الآباء الذين تفخرُ بهم كانُوا فُسَّاقاً، وَشَرَبَةَ خُمُورٍ، ولاطَةً[٤]، ومُتَعَبِّثِين، ونوكَىٰ؛

(١) النَّزَق: الخِفَّةُ والطَّيش.

(٢) هذا استنتاج بعيد، نعم: للأمراض آثار واضحة علىٰ خُلُق الإنسان ومزاجه، وهذا ممّا لا يختصّ بمرض الطِّحال، بل جنس المرض يؤثر علىٰ نفسية المريض، وتختلف درجة ذلك باختلاف نوعه، وطبيعة شخصية المريض، وقد ينال المريض بمرضه ما لا يناله الصّحيح بصحّته!

(٣) أي: التغيُّر. وفي (د) و(ي): (التبذُّل) ـ بالذال المعجمة ـ، وهو ترك التّصاون.

(٤) لاطة، جمع: لوطي، وهو: من يعمل عمل قوم لوط الّذين كانوا يأتون الرجال شهوةً من دون النساء، فأهلكهم الله تعالى، فهذه النسبة لفعلهم، قال الليث: لوطَ

أطلقتِ الأيامُ أيْديهم بالظُّلم والجوْر، فأنتجُوا ظُلماً وآثاراً قبيحة يبقىٰ بذلك عارُهم علىٰ الأيام، ويَعْظُمُ إثْمُهم والنَّدمُ عليها يومَ الحسابِ، فإنْ كان ذلك؛ فاعلمْ أنَّ الذي أُعجبت به من ذلك داخلٌ في العَيْبِ، والْخِزْي، والعارِ، والشَّنار؛ لا في الإعجاب.

[١٨٥] فإنْ أُعجبتَ بولادةِ الفضلاء إيَّاك؛ فما أخلىٰ يدكَ من فضلهم إنْ لم تكنْ أنتَ فاضلًا! وما أقلَّ غِناؤُهم عنك في الدُّنيا والآخرة إنْ لم تَكُنْ مُحْسِناً! والنَّاسُ ـ كلُّهم ـ وَلَدُ آدمَ الذي خلَقَهُ الله ـ تعالىٰ ـ بيَدِهِ، وأَسْكَنَهُ جنَّته، وأَسْجَدَ له ملائكَتَهُ، ولكن ما أقلَّ نَفْعهُ لهم وفيهم كلُّ معيبٍ، وكلُّ فاسقٍ، وكلُّ كافرٍ.

وإذا فكَّرَ العاقلُ في أنَّ فضلَ آبائه لا يُقَرِّبُهُ من ربِّه ـ تعالىٰ ـ ولا يُكْسِبُهُ وجاهةً؛ لم يَحُزْها هو بسَعْدِهِ، أو بَفَضْله في نفسه، ولا مالًا[1]، فأيُّ معنىً للإعجاب بما لا مَنْفَعَةَ فيه! وهل المُعْجَبُ بذلك إلَّا كالمُعْجَبِ بمالِ جارِه، وبجاهِ غَيْرِهِ، وبفرسٍ لغَيْره سَبَقَ كانَ علىٰ رأسه لِجامُهُ؟! وكما تقولُ العامَّةُ في أمثالها؛ كالخَصِيِّ يَزْهي بذَكَرِ أَبِيهِ!

= كانَ نبياً بعثه الله إلىٰ قومه فكذَّبوه، وأحدثوا ما أحدثوا، فاشتقَّ النَّاسُ من اسمه فعلًا لمن فَعَلَ فِعْلَ قومه «اللسان» مادة: (لوط). قلتُ: ولم يَرِدْ ـ فيما أعلم ـ استعمالُ هذه النسبة في حديثٍ صحيح من أحاديثِ النَّبي ﷺ، لكنْ صحَّ ذلك عن بعض الصَّحابة، ثم استعمله أئمةُ التَّفسير، والحديث، والفقه، واللُّغة، وأدخلوه في مصنفاتهم.

(١) في النسخ الأخرىٰ: (ماله).

[١٨٦] فإن تمدَّىٰ بك العُجْبُ إلىٰ امتداحٍ؛ فقد تضاعف سقُوطكَ، لأنّه قد عجز عقلُك عن مقاومةِ ما فِيك من العُجْب. هذا إن امتَدَحْتَ بحقٍّ، فكيف إن امتدحت بالكَذِبِ، وقد كانَ ابنُ نوحٍ، وأَبُو إبراهيمَ، وأبو لَهَبٍ ـ عمُّ النبيِّ صلى الله عليه [وعلىٰ نوحٍ وإبراهيم[1]] وسلَّم ـ أقربَ النَّاس من أفضل خَلْقِ الله ـ تعالىٰ[2] ـ، ومن الشَّرفِ ـ كلِّه ـ في اتِّباعهم، فما انْتَفَعُوا بذلِكَ. وقَدْ كانَ فيمن وُلِدَ لغَيْرِ رَشْدَةٍ[3] من كانَ الغايَةَ في رئاسةِ الدُّنيا؛ كزيادٍ[4]، وأبي مُسْلِمٍ[5]، ومن كانَ نهايةً في الفضل علىٰ الحقيقة؛ كبعض من نُجلُه

(١) زيادة من (ب).
(٢) زاد في (ب): (من ولد آدم).
(٣) يقال: وُلدَ لِرَشْدةٍ، أي: من نكاح شرعي، ضدُّ لِزَنْيَةٍ.
(٤) هو: زياد ابن أبيه، وهو: زياد بن سمية، امرأة كانت مزوَّجة بعبيد مولىً لثقيف، فيقال: إن أبا سفيان أتى الطائف في جاهليته، فسكر، وطلب بغياً، فواقع سمية، فولدت من جِماعه زياداً. وقد استلحقه معاوية ـ رضي الله عنه ـ بأنه أخوه، فصار يقال له: ابن أبي سفيان أيضاً، وقد كان كثير من الصحابة والتابعين ينكرون ذلك على معاوية ـ رضي الله عنه ـ، لكن معاوية ما استلحقه إلَّا بعد شهادة جمع عنده على أبي سفيان أنَّ زياداً ابنه. وهذه قصة معروفة، وما ذكرها ابن حزم رحمه الله ـ إلَّا لشهرتها، وإلَّا فإن زياداً ـ هذا ـ كان تابعياً خيِّراً فاضلًا، ولد عام الهجرة، وأسلم زمن الصِّدِّيقِ وهو مراهق، استكتبه أبو موسى الأشعري، واستعمله على شيء من البصرة، فأقرَّه عمر، ثم صار مع عليٍّ، فاستعمله على فارس، وولَّاه معاوية إمرة المصْرَين: الكوفة والبصرة، ولم يجمعا قبله لغيره، وأقام في ذلك خمس سنين، وكان من نبلاء الرجال، رأياً، وعقلًا، وحزماً، ودهاءً، وفطنةً. كان يضرب به المثل في النبل والسؤدد، توفي سنة: (٥٣هـ). ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٣/(١١٢).
(٥) هو: أبو مسلم الخراساني، داعية بني العباس، لعب دوراً أساسياً في إسقاط الخلافة الأموية، وكان طاغيةً سفّاكاً للدماء، ذا رأي، وعقل، وتدبير، وحزم، وقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور في ريبة من أمره، فلمَّا حاول الاستقلال

عن ذِكْرِه في مثل هذا الفَضْلِ، مِمَّنْ يُتَقَرَّبُ إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بمَحَبَّتِه، والاقتداءِ بحَميدِ آثارِه.

[١٨٧] وإنْ أعجبتَ بقوةِ جِسْمِكَ؛ فتفكَّر في أنَّ البَغْلَ، والحِمارَ، والثَّوْرَ؛ أقوىٰ منك، وأحْمَلُ للأثقال.

[١٨٨] وإنْ أُعجبتَ بخِفَّتِكَ؛ فاعلَمْ أنَّ الكلبَ، والأرنبَ، يفُوقانِكَ في هذا البابِ فمِنَ العَجَبِ العَجيبِ؛ إعجابُ ناطقٍ بخَصْلَةٍ يفُوقُهُ فيها غيرُ النَّاطِقِ.

[١٨٩] واعْلَمْ أنَّ مَنْ قدَّرَ في نفسه عُجْباً، أو ظَنَّ لها علىٰ سائر النَّاس فَضْلًا؛ فلْيَنْظُر إلىٰ صَبْرِهِ عندما يَدْهَمُهُ هَمٌّ، أو نَكْبَةٌ، أو وَجَعٌ، أو دُمَّلٌ، أو مُصِيبَةٌ؛ فإن رأىٰ نفسه قليلةَ الصَّبْرِ، فلْيعلمْ أنَّ جميعَ أهلِ البلاءِ ـ من المَجْذُومِينَ وغيرِهم ـ الصابِرِينَ أفضل منه علىٰ تأخُّرِ طبقَتِهِم في التَّمييزِ، وإنْ رأىٰ نفسه صابرةً فلْيَعْلَمْ[١] أنَّه لم يأتِ بشيءٍ يَسْبِقُ فيه علىٰ من ذكرنا، بل هو في ذلك إمَّا متأخِّرٌ عنهم، وإمَّا مُساوٍ لهم، ولا مَزِيدَ.

[١٩٠] ثُمَّ لينظر إلىٰ سيرته وعَدْلِه أو جَوْره فيما خَوَّلَهُ الله ـ تعالىٰ ـ من نِعْمةٍ، أو مالٍ، أو خَوَلٍ[٢] أو ولايةٍ، أو أهلٍ، أو

= بخراسان، وظهرت بوادر تمرّده، استقدمه المنصور إلى المدائن وقتله، في شعبان (١٣٧هـ)، وأخباره مبسوطة في كتب التاريخ، ويظهر من خلالها أنه يمثل حلقة من حلقات الحقد الفارسي ضدّ الأمّة المصطفاة.

(١) في الأصل: (فاعلم).

(٢) الخولُ: ما أعطاك الله تعالىٰ من النِّعم والخدم، وغيرهم من الحاشية.

جاهٍ؛ فإنْ وجد نفسهُ مقصِّرةً فيما يلزمُهُ من الشُّكْرِ لواهبه ـ تعالىٰ ـ ووجَدَها حائفةً في العدْلِ؛ فليعلَمْ أنَّ أهلَ العَدْلِ والشُّكْرِ، والسِّيرة الحَسَنَةِ من المخوَّلين أكثر ممّا هو فيه؛ أفضلُ منه، وإنْ رأىٰ نفسه ملتَزِمَةَ العَدْلَ؛ فالعادلُ بعيدٌ عن العُجْبِ البَتَّةَ، لعِلْمِهِ بموازين الأشياءِ، ومقادير الأخلاق، والْتِزامِهِ التَّوسطَ الذي هو الاعتدالُ بين الطَّرَفَيْنِ المَذْمُومَيْن، فإنْ أعجبَ؛ فلم يَعْدِل بل قد مالَ إلىٰ جنبة الإفراطِ المَذْمومة.

واعلَمْ أنَّ التَّعَسُّفَ، وسُوءَ المَلَكَةِ لمن خوَّلَكَ اللَّهُ ـ تعالىٰ ـ أمرَهُ من رَقِيقٍ، أو رَعيَّةٍ، يدلَّانِ علىٰ خساسَةِ النَّفْسِ، ودناءة الهِمَّةِ، وضَعْفِ العقل، لأنَّ العاقل الرَّفِيعَ النَّفْسِ، العالي الهمَّة؛ إنَّما يُغالِبُ أكْفاءَهُ في القوَّةِ، ونظراءَهُ في المَنَعَةِ، وأمَّا الاستطالةُ علىٰ من لا يُمكِنُهُ المعارضةُ فسقوطٌ في الطَّبع، ورذالةٌ في النَّفس والخُلُقِ، وَعجزٌ ومهانَةٌ، ومن فَعَلَ ذلك فهو بمنزلَةِ من يتبجَّحُ بقتلِ جُرْذٍ، أو بعَقْرِ برغوثٍ، أو بفَرْكِ قُمَّلَةٍ، وحَسْبُكَ بهذه ضعةً وَخَساسَةً.

[١٩١] واعلم أنَّ رياضةَ النَّفْسِ أصعبُ من رياضة الأسد، لأنَّ الأسدَ إذا سُجِنَتْ في البيوتِ الَّتي تَتَّخِذُ لها الملوكُ أُمِن من شرِّها، والنَّفْسِ ـ وإنْ سُجِنَتْ ـ لم يُؤْمَنْ شَرُّها.

[١٩٢] والعُجْبُ أصلٌ يتفرَّعُ منه التِّيْهُ، والزَّهْوُ، والكِبْرُ، والنَّخْوَةُ، والتَّعالي، وهذه أسماءٌ واقعةٌ علىٰ معانٍ متقاربةٍ، ولذلك صَعُبَ الفرق بينها علىٰ أكثر النَّاس، فقد يكونُ العُجْبُ بفضيلةٍ في

المُعْجَبِ ظاهرةٍ، فمن مُعْجَبٍ بِعِلْمِهِ؛ فيَكْفهرُ وينغلقُ[1] على النّاس، ومن معجب بعَمَله؛ فيترفَّعُ ويتعاطىٰ، ومن مُعجبٍ برأْيه؛ فيَزْهُو علىٰ غيره، ومن مُعْجبٍ بنَسَبِهِ؛ فيَتِيهُ، ومن معجبٍ بجاهِهِ، وعُلُوّ حالِهِ؛ فيتكَبَّرُ، ويتَنَخَّىٰ.

[١٩٣] فأقلُّ مراتب العُجْبِ؛ أنْ تراه يتوقَّرُ عن الضَّحِك في مواضِعِ الضَّحك، وعن خِفَّةِ الحركاتِ، وعن الكلام إلَّا فيما لا بدّ منه من أمورِ دُنْياه، وعَيْبُ هذا أقلُّ من عيبِ غيره، ولو فعلَ هذه الأفاعيلَ علىٰ سبيلِ الاقتصارِ علىٰ الواجباتِ، وتركِ الفُضُولِ لكانَ ذلك فضلًا وموجباً لحَمْدِهِمْ، ولكنَّهم إنَّما يفعلونَ ذلك احتقاراً للنَّاس، وإعجاباً بأنفسهم، فحَصَلَ لهم بذلك استحقاقُ الذَّمّ، و «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، ولكلِّ امرىءٍ ما نَوىٰ»[2].

حتَّىٰ إذا زادَ الأمرُ ولم يَكُنْ هنالِكَ تَمْيِيزٌ يحجبُ عن تَوْفِيَةِ العُجبِ حقَّه، ولا عقلٌ جيِّدٌ؛ حدثَ من ذلك ظُهورُ الاستخفافِ بالنَّاس، واحتقارهم بالكلام، وفي المعاملة، حتَّىٰ إذا زادَ ذلك، وضعفَ التَّمْيِيزُ والعقلُ؛ ترقَّىٰ ذلك إلىٰ الاستطالة علىٰ النَّاس بالأذىٰ ـ باللِّسانِ، واليدِ، والتَّحكُّم، والظُّلم، والطُّغْيانِ، واقتضاءِ الطَّاعةِ لنفسه، والخُضوعَ لها ـ إنْ أمكَنَهُ ذلك، فإنْ لم يَقْدِر علىٰ ذلكَ امتدحَ بلسانِهِ، واقْتَصَرَ علىٰ ذمِّ النَّاسِ، والاستهزاءِ بهم.

---

(١) كذا في الأصل مجوّداً، وفي النسخ الأخرىٰ: (يتعلّق)، أي: يتفاخر. وقرأها الدكتور إحسان عباس: (يتغلّق)، وفسّرها بقوله: يغضب، ويحتدّ، ويبدي ضيق خلقه.

(٢) تضمين لحديث النيّة المعروف، وهو في: «الصَّحيحَين» وغيرهما.

[١٩٤] وقد يكونُ العُجْبُ لغير معنىً، ولغير فضيلةٍ في المُعْجَبِ، وهذا من عجيبِ ما يقعُ في هذا البابِ، وهو شيءٌ تسمّيه عامَّتُنا: التُّمَيْزُل[1]، وكثيراً ما تراهُ في النِّساءِ، وفي من عَقْلُه قريبٌ من عقُولِهِنَّ من الرِّجالِ، وهو عُجْبٌ من ليسَ فيه خصْلَةٌ أصلًا، لا عِلْمٌ ولا شجاعةٌ، ولا علوُّ حالٍ، ولا نسبٌ رفيعٌ، ولا مالٌ يُطْغيه، وهو مع ذلكَ يعلَمُ أنَّه صِفْرٌ من كلِّ ذلكَ، لأنَّ هذه أمورٌ لا يَغْلطُ فيها من لا يُقْذَفُ بالحجارة[2]، وإنَّما يَغْلَطُ فيها من له أدنىٰ حظّ

---

(١) هكذا قرأتها إيڤا رياض؛ وأرجعتها إلىٰ: التَّمَيُّز. ويمكن أن تقرأ: (التَّمنزل)، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الفائدة التي ذكرها الدكتور إحسان عباس، قال ـ بعد أن أثبت في النص ما جاء في المخطوطة (ب): (التَّمييز المتمندل) ـ: لم أوفق إلىٰ توجيه لفظة: «المتمندل» حتىٰ رأيت الدكتور عبدالعزيز الأهواني ـ رحمه الله ـ قد أشار إلىٰ الزّجل (رقم: ١٢٥) لابن قزمان، وقد جاء في المقطوعة الثالثة منه (انظر: مجلة المعهد المصري، المجلد: ١٩، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨) ص: ٦٠.

حَبيبٌ يتَمَنْزَلُ لما أنا عبدُ

وفسّر: «يتمنزل» بمعنى: يُدِلُّ بمنزلته ويتكبَّر، وهذا توضيح جيد، ولكنه يلقي شكّاً علىٰ لفظة: «التمييز»، وأنا أعتقد أنّ اللفظتين لفظة واحدة، واضطرب فيهما الناسخ، أو أن الأصل الصحيح هو: «وهو شيء يسمّيه عامتنا: التمنزل والتمندل»، والتمندل تعني ـ أيضاً ـ: اصطناع الدلّ. انتهىٰ.

قلت: وفي (س) و(د) و(ي): (التَّمترك)، واعتمده الدكتور مكي، وقال: . . . ويرىٰ خوليان ريبيرا ـ من كبار المستشرقين الإسبان (١٨٥٨ ـ ١٩٣٤) أن مسلمي الأندلس في عاميّتهم العربية كانوا يميلون إلىٰ أن يشتقوا أفعالًا رباعية من أسماء ذات أصول ثلاثية، يضيفون إليها حرف الميم في البداية، فيقولون: تمرجح من مرجحة، وتمخرق من مخرقة، وتمسخر من مسخرهة، وتمعدن من معدن، وهكذا. . . وفي ضوء هذا يمكن أن نقول: إنّ «تمترك» مشتق من: متروك، والأصل الثلاثي لهذه هو: ترك، ومن معانيه: طرح، وخلّى، ونسي، واحتقر، وعزل، ولم يعد يهتم بالأمر، وكلّها يمكن أن تهدي إلىٰ المعنىٰ الذي في الجملة. انتهىٰ باختصار.

(٢) كناية عن المجنون.

منها، فربَّما يتوهَّمُ إنْ كان ضعيفَ العقلِ أنَّه قد بلغ الغايةَ القُصوىٰ منها، كمَنْ له حظٌّ من علمٍ فظنَّ أنَّه عالمٌ كاملٌ، أو كمن له نَسَبٌ مُعْرِقٌ في ظُلْمه، وتجدهم لم يكونوا ـ أيضاً ـ رفعاءَ في ظُلْمهم، فتجِدُهُ لو كانَ ابنَ فرعونَ ـ ذي الأوتادِ ـ ما زادَ علىٰ إعجابه الذي فيه، أو له شيءٌ من فُرُوسيَّةٍ فهو يقدِّرُ أنَّه يهزِمُ علياً[1]، ويأْسِرُ الزُّبَيْرَ[2]، ويَقْتُلُ خالِداً[3]، أو له شيءٌ من جاهٍ رَذْلٍ فهو لا يرىٰ الإسكندرَ علىٰ حالٍ، أو يكون قوياً علىٰ أن يكتسبَ ما يتوفَّرُ بيدِهِ مُوَيْلٌ[4] يفْضُلُ عن قوته، فلو أخَذَ بقَرْني الشَّمس لم يَزِدْ علىٰ ما هو فيه. وَليس يَكْثُرُ العَجَبُ من هؤلاء ـ وإنْ كانُوا عجباً ـ لكن مِمَّنْ لا حظَّ له من علمٍ أصلاً، ولا نسبٍ ألَبَتَّةَ، ولا مالٍ ولا جاهٍ ولا نَجْدَةٍ، بل تراهُ في كفالةِ غيره، ومُهْتَضَماً لكلٍّ من له أدنىٰ طاقَّةٍ، وهو يعلم أنَّه خالٍ من كلِّ ذلكَ، وأنَّه لا حظَّ له في شيءٍ منه، ثُمَّ هو مَعَ ذلكَ في حالةِ المَزْهُوِّ التَّيَّاهِ!

[١٩٥] ولقد تسبَّبْتُ إلىٰ سؤالِ بعضهم، في رفقٍ ولِينٍ، عن سببِ عُلُوِّ نفسه، واحتقارِهِ للنَّاسِ فما وجدْتُ عنده مزيداً علىٰ أنْ قالَ لي: أنا حرٌّ لستُ عَبْدَ أحدٍ. فقلتُ له: أكثرُ من تَراهُ يُشارِكُكَ في هذه الفَضِيلَة، فهُمْ أحرارٌ مثلكَ، إلَّا قوماً من العبيد هُمْ أطولُ

(١) عليّ بن أبي طالب (٤٠هـ)، رضي الله عنه.
(٢) حواريّ رسول الله ﷺ: الزبير بن العوّام (٣٦هـ) رضي الله عنه.
(٣) سيف الله: خالد بن الوليد (٢١هـ) رضي الله عنه.
(٤) تصغير مال، وفي (د) و (ي): (مؤمل)، وزاد في (س): (كذا) دلالةً علىٰ استغرابها.

يداً منك، وأمرهم نافذٌ عليك، وعلىٰ كثيرٍ من الأحرار. فلم أجِدْ عنده زيادةً، فرجعتُ إلىٰ تفتيش أحوالهم، ومراعاتِها، ففكَّرتُ في ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم علىٰ هذا العُجْبِ الذي لا سببَ له، فلم أزلْ أختبِرُ ما تَنْطوي عليه نفوسُهُم ممَّا يَبْدُو من أَحوالهم ومن مراميهِم في كلامِهِم، فاسْتقرَّ أمرهم علىٰ أنَّهم يُقَدِّرُونَ أنَّ عندهم فضلُ عقلٍ، وتَمْييزٍ، ورأيٍ أصيلٍ، لو أمكنَتْهُمْ الأيامُ من تَصْرِيفِه لوجدُوا فيه مُتَّسَعاً، ولأداروُا الممالِكَ الرَّفيعة، ولبانَ فضلهم علىٰ سائر النَّاس، ولو ملكُوا مالاً لأحسنوا تَصْرِيفَهُ، فمِنْ هاهنا تَسَبَّبَ التِّيهُ إليهم، وسَرىٰ العُجْبُ فيهم.

[١٩٦] وهذا مكانٌ للكلامِ فيه شَعْبٌ عَجِيبٌ، وعارضةٌ مُعْترِضَةٌ، وهو أنَّهُ ليس شيءٌ من الفضائلِ كلَّما كانَ المرءُ منه أعرىٰ؛ قَوِيَ ظنُّه في أنَّه قد استولىٰ عليه، واستمرَّ يَقِينُه في أنَّه قد كَمُلَ فيه؛ إلَّا العقلُ والتَّمْييزُ، حتَّىٰ إنَّكَ تجدُ المجنونَ المُطْبقَ، والسَّكْرانَ الطَّافِحَ؛ يَسْخَرانِ بالصَّحِيحِ، والجاهلَ النَّاقِصَ؛ يهزلُ بالحُكَماءِ والأفاضِلِ العلماءِ، والصبيانَ الصِّغارَ؛ يتهكَّمُونَ بالكُهولِ، والسُّفهاءَ العَيَّارِينَ[1]؛ يَسْتَخِفُّونَ بالعقلاءِ المتصاونين، وضَعَفَةَ النساءِ؛ يَسْتَنْقِصْنَ عقولَ أكابرِ الرِّجالِ وآرائِهِم.

وبالجملةِ؛ فكلَّما نقصَ العقلُ توهَّمَ صاحبه أنَّه أوفرُ النَّاس عقلاً، وأكملُ ما كانَ تَمييزاً، ولا يَعْرِضُ هذا في سائر الفضائل،

(١) العيّار ـ في الأصل ـ: النشيط، الكثير المجيء والذّهاب، والذّكي الكثير التطواف. قال ابن الأعرابي: والعرب تمدح بالعيّار وتذمّ به، يقال: غلام عيّار نشيط في المعاصي، وغلام عيّار نشيط في طاعة الله تعالى.

فإنَّ العاري منها جملةً يدري أنّه عارٍ منها، وإنّما يدخلُ الغَلَطُ علىٰ من له أدنىٰ حظٍّ منها؛ وإنْ قلَّ، فإنَّه يتوهَّمُ - حِينَئِذٍ - إنْ كانَ ضعيفَ التَّمْييزِ؛ أنّه عالي الدَّرجَةِ فيه.

[١٩٧] ودواءُ من ذكرنا؛ الفَقْرُ، والخُمولُ، فلا دواءَ أَنْجَعَ لهم مِنْه، وإلَّا فداؤُهُم وضَرَرُهُم علىٰ النَّاس عظيمٌ جدّاً، ولا تجدُهُم إلَّا عيَّابِينَ النَّاسَ[١]، وقَّاعينَ في الأعراضِ، مُسْتَهزئينَ بالْجَميعِ، مجانِبينَ للحقائِقِ، مُكِبِّينَ علىٰ الفضول، وربّما كانوا مع ذلك متعرِّضينَ للمُشاتَمَةِ، والمُهارَشَةِ، وربَّما قصدُوا إلىٰ الملاطَمَةِ، والمُضَاربة؛ عند أدْنىٰ سببٍ يَعْرِضُ لهم.

[١٩٨] وقد يكونُ العُجْبُ مكتناً[٢] في المرءِ حتَّىٰ إذا حَصَلَ علىٰ أدنىٰ جاهٍ، أو مالٍ؛ ظهرَ ذلك عليه، وعَجزَ عَقْلُهُ عن قَمْعِهِ، وسَتْرِهِ.

[١٩٩] ومن طريفِ ما رأيتُ في بعضِ أهلِ الضَّعْفِ؛ أنَّ مِنْهم من يَغْلِبُهُ ما يُضْمِرُ من محبَّةِ ولَدِهِ الصَّغيرِ، وامرأتِهِ حتَّىٰ يَصِفُها بالعقل في المحافِلِ، وحتَّىٰ أنَّه يقولُ: هي أعقلُ مِنِّي، وأنا أتبرَّكُ بوصيَّتها! وأمَّا مدحه إيَّاها بالجمالِ، والحُسْنِ، والعافِيَةِ؛ فكثيرٌ في أهلِ الضَّعْفِ جداً، حتَّىٰ إنَّه لو كانَ خاطباً لها ما زادَ علىٰ ما يقولُ في ترغيبِ السَّامِعِ لوَصْفِهِ لِمَا فيها، ولا يكونُ هذا إلَّا في ضَعِيفِ العقلِ، عارٍ من العُجْبِ بِنَفْسِهِ.

(١) في النسخ الأخرىٰ: (للنَّاس).
(٢) أي: مستوراً. وفي النسخ الأخرىٰ: (مكيناً)، أي: متمكّناً.

[٢٠٠][١] إيّاكَ والامتداحَ؛ فإنّ كلّ من يسمعُكَ لا يصدِّقُكَ؛ وإنْ[٢] كنت صادقاً، بل يجْعَلُ ما سَمِعَ منكَ - من ذلك - في أوّلِ معايبك.

وإيَّاكَ ومَدْحَ أحدٍ في وَجْهِهِ فإنَّه فعلُ أهلِ المَلَقِ، وضعة النُّفوسِ.

وإيَّاكَ وذمَّ أحدٍ في حَضْرَتِهِ، ولا في مَغِيبِهِ، فلك في إصلاحِ نفسك شُغْلٌ.

وإيَّاكَ والتَّفَاقرَ؛ فإنَّك لا تَحْصُل من ذلك إلَّا علىٰ تكْذيبك، أو احْتِقارِ من يسمَعُكَ، ولا مَنْفعةَ لك في ذلك أصلاً إلَّا كُفْرَ نِعْمَةِ ربِّكَ - تعالىٰ - أو شَكْواهُ إلىٰ من لا يَرْحَمُكَ.

وإيَّاكَ وَوَصْفَ نَفْسِكَ باليَسارِ؛ فإنَّك لا تَزيدُ علىٰ إطماع السَّامِعينَ فيما عِنْدك، ولا تَزِدْ علىٰ شُكْرِ الله - تعالىٰ - وذِكْرِ فقرك إليه، وغِناكَ عن من دُونَه، فإنَّ هذا يُكْسِبُكَ الجَلالَةَ، والرَّاحة من الطَّمع فيما عِنْدَكَ.

[٢٠١] العاقلُ هو من لا يُفارِقُ ما أَوْجَبَهُ تَمْييزُهُ.

[٢٠٢][٣] من سبَّبَ للنَّاس الطَّمع فيما عنده؛ لم يحصل إلّا علىٰ أنْ يَبْذُلَهُ لهم، ولا غايةَ[٤] لهذا، أو يَمْنَعَهُم فيلَوْم،

(١) هذه الفقرة من الأصل و (ب) وسقطت من بقية النسخ.
(٢) كذا في (ب)، وفي الأصل: (فإنْ).
(٣) هذه الفقرة من الأصل و (ب) وسقطت من بقية النسخ.
(٤) في (ب): (لها غاية).

ويعادُونهُ. وإذا[1] أردت أنْ تُعطي أحداً شيئاً فليكنْ ذلك منك قبلَ أنْ يَسْأَلَكَ، فهو أكرمُ، وأنْزَهُ، وأوجبُ للحَمْدِ.

[٢٠٣] من بديعِ ما يَقَعُ في الحَسَدِ؛ قولُ الحاسدِ ـ إذا سمعَ إنساناً يُغْرِبُ في علمٍ ما ـ: هذا شيءٌ باردٌ، لم يَتقدَّم إلَيه، ولا قالَهُ قَبْلَهُ أحدٌ. فإنْ سمع من يُبَيِّنُ ما قد قالَهُ غيرُهُ، قالَ: هذا باردٌ، وقد قِيلَ قبله. وهذه طائِفَةُ سوءٍ، قد نَصَبَتْ أنفُسَها للقعود علىٰ طريقِ العلم، يصدُّونَ النَّاس عنها ليَكْثُرَ نظراؤهم من الجهّال.

[٢٠٤] الحكيمُ لا يَنْفَعُهُ حِكْمَتُه عند الخبيثِ الطَّبْعِ، بل يَظُنُّه خبيثاً مِثْلَهُ. وقد شاهدتُ أقواماً ذوي طبائعَ رديَّةٍ ـ وقد تصوَّر في أنْفسِهم الخَبيثَةِ أنَّ النَّاسَ ـ كلُّهم ـ علىٰ مِثْلِ طبائعِهم ـ لا يُصَدِّقُونَ أصلًا بأنَّ أحداً هو سالِمٌ من رذَائِلهم بوَجْهٍ من الوُجُوهِ، وهذا أسْوأُ ما يكونُ من فسادِ الطَّبْعِ، والبُعْدِ عن الفَضْلِ والخَيْرِ، ومَنْ هذه صِفَتُهُ لا يُرجىٰ لها معاناةٌ[2] أبداً، وبالله [ـ تعالىٰ ـ] التَّوْفيقُ.

[٢٠٥] العدلُ حِصْنٌ يلجأُ إليه كلُّ خائفٍ، وذلك أنَّكَ ترىٰ الظَّالِمَ، وغيرَ الظَّالمِ؛ إذا رأىٰ من يُريدُ ظُلْمَهُ دعا إلىٰ العَدْلِ، وأنْكرَ الظُّلمَ ـ حِينَئِذٍ ـ وذمَّه، ولا ترىٰ أحداً يَذُمُّ العدلَ، فمن كانَ العدلُ في طَبْعِهِ فهو ساكنٌ في ذلك الحِصْنِ الحَصِينِ.

[٢٠٦] الاستهانةُ نوعٌ من أنواعِ الخِيانَةِ؛ إذْ قد يَخُونُكَ من

(١) في (ب): (فإذا).

(٢) أي: مداراة، وحُسْن سياسة، وإصلاح لها.

لا يَسْتَهينُ بك، ومن استهانَ بك فقد خانَكَ الإنصافَ. فكلُّ مُسْتهينٍ خائنٌ، وليس كلُّ خائنٍ مُسْتهيناً.

[٢٠٧] الاستهانةُ بالمتاعِ دليلٌ علىٰ الاسْتِهانَةِ بربِّ المتاع.

[٢٠٨] حالانِ يَحْسُنُ فيهما ما يَقْبُحُ في غيرهما، وهما: المُعاتَبَةُ، والاعتذارُ، فإنَّه يَحْسُنُ فيهما تَعْدِيدُ الأيادي، وذِكْرُ الإحسانِ، وذلكَ غايةُ القُبْحِ فيما عدَا هٰذَيْنِ الحالَيْنِ.

[٢٠٩] لا عيبَ علىٰ من مالَ بطَبْعِهِ إلىٰ بعضِ القَبائحِ، ولو أنَّه أشدُّ العيوب، وأعظَمُ الرَّذائل، ما لم يُظْهِرْهُ بقولٍ، أو فعلٍ، بل يكادُ يكونُ أَحْمَدَ مِمَّنْ أعانَهُ طَبْعُهُ علىٰ الفَضائِلِ، ولا تكونُ مغالَبَةُ الطَّبْعِ الفاسِدِ إلَّا عن قوَّةِ عقلٍ فاضلٍ.

[٢١٠] الخِيانَةُ في الحُرَمِ[1] أشدُّ من الخيانَةِ في الدِّماءِ.

[٢١١] العِرْضُ أعزُّ على الكريم من المال.

[٢١٢] ينبغي للْكَريمِ أنْ يَصُونَ جسمه بمالِهِ، وَيَصُونَ نفْسَهُ بجِسْمِهِ، ويَصُونَ عِرْضَهُ بنَفْسِهِ، ويصونَ دِينَهُ بعِرْضِهِ، ولا يَصُونَ بدِينِهِ شيئاً أَصْلاً.

[٢١٣] الخيانةُ في الأعراضِ أخفُّ من الخيانةِ في الأموال، وبرهانُ ذلكَ؛ أنَّه لا يكادُ يُوجَدُ من لا يخونُ في العِرْضِ، وإنْ قلَّ ذلك منه، وكانَ منْ أهلِ الفَضْلِ، وأمَّا الخيانةُ في المال ـ وإنْ قلَّتْ أو كثُرتْ ـ فلا تكونُ إلَّا من رَذْلٍ، بعيدٍ عنِ الفَضْلِ.

(١) حُرَمُ الرَّجُلِ: نساؤه، وما يحميه.

[٢١٤] القياسُ في أحوالِ النَّاسِ قد يَكْذِبُ في أكثرِ الأمرِ، ويَبْطُلُ في الأغلبِ، واستعمالُ ما هذه صِفَتُهُ في الدِّينِ لا يَجُوزُ[1].

[٢١٥] المقلِّدُ راضٍ أن يُغْبَنَ عَقْلُهُ، ولعلَّه مع ذلك يَسْتَعْظِمُ أنْ يُغْبَنَ في مالِهِ، فيُخْطِئُ في الوجهَيْنِ جميعاً.

[٢١٦] لا يَكْرَهُ الغُبْنَ في ماله، وَيَسْتَعْظِمُهُ إلَّا لَئِيمُ الطَّبْعِ، دقيقُ الهِمَّةِ، مَهِينُ النَّفْسِ.

[٢١٧] من جَهِلَ معرفةَ الفضائلِ؛ فلْيَعْتَمِدْ علىٰ ما أمَرَه الله ـ تعالىٰ ـ ورسولُهُ ﷺ فإنَّه يَحتوي علىٰ جميعِ الفضائلِ.

[٢١٨] رُبَّ مَخُوفٍ كانَ التَّحفُّظُ منه سببَ وقوعه. ورُبَّ سِرٍّ كانت المبالغةُ في طيِّه علة انتشاره. ورُبَّ إعراضٍ أبلغُ في الاسترابةِ من إدامة النَّظر، وأصلُ ذلك ـ كلِّه ـ الإفراطُ الخارجُ عن حدِّ الاعتدال.

[٢١٩] الفضيلةُ وَسِيطةٌ بين الإفراطِ والتَّقْصِير[1]، وكلا الطَّرفَيْنِ مَذْمُومٌ، والفضيلةُ بينهما مَحْمُودَةٌ، حاشا العَقْل فإنَّه لا إفراطَ فيه.

[٢٢٠] الخطأُ في الحَزْمِ خَيْرٌ من الخَطَأ في التَّضْيِيعِ.

[٢٢١] من العجائِبِ أنَّ الفضائِلَ مُسْتَحْسَنَةٌ مُسْتَثْقلةٌ، والرَّذائلَ مُسْتَقْبَحَةٌ مُسْتَخَفَّةٌ.

[٢٢٢] من أرادَ الإنصافَ فليتوهَّم نَفْسَهُ مكانَ خَصْمِه، فإنَّه يَلُوحُ له وَجْهُ تعسُّفه.

[٢٢٣] حدُّ الحَزْمِ معرفةُ الصَّديقِ من العدوِّ، وغايةُ الخُرْقِ[2] والضَّعْفِ؛ جهلُ العدوِّ من الصَّديقِ.

[٢٢٤] لا تسلِّمْ عدوَّك لِظُلْمٍ، ولا تَظْلِمْهُ، وساوِ في ذلك بَيْنَهُ وبَيْنَ الصَّديقِ، وتحفَّظْ منه، وإيَّاكَ وتَقْرِيبَهُ، وإعلاءَ قَدْرِه، فإنَّ هذا من أفعالِ النَّوكىٰ. ومَنْ[3] ساوىٰ بينَ عدوِّه وصديقه في التَّقْرِيبِ والرِّفْعة لم يَزِدْ علىٰ أنْ زَهَّدَ النَّاسَ في مودَّته، وسهَّل

(١) هذا مبنيٌّ على مذهب المصنِّف ـ رحمه الله ـ في إنكار القياس، وإبطال القول به بالكلّية، وهو قولٌ شاذٌّ تبنَّاه الظَّاهرية من الفقهاء، ولابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: «إعلام الموقِّعين» فصولٌ رائعةٌ مطوَّلةٌ في القياس، وشرح حجج مثبتيه ونافيه، والموازنة بينها، لعلَّ خلاصتها تكمن في قوله: «إنَّ النُّصوصَ محيطةٌ بأحكام الحوادث، ولم يُحِلْنا اللّهُ ولا رسولُه على رأيٍ ولا قياسٍ، بل قد بيَّنَ الأحكام ـ كلَّها ـ، والنُّصوصُ كافيةٌ وافيةٌ بها، والقياسُ الصَّحيحُ حقٌّ مطابقٌ للنُّصوص، فهما دليلان: الكتابُ، والميزانُ. وقد تخفىٰ دلالةُ النَّصِّ أو لا تبلغ العالم فيعدل إلىٰ القياس، ثم قد يظهر موافقاً للنَّصِّ فيكونُ قياساً صحيحاً، وقد يكون مخالفاً له فيكون فاسداً...».

قلتُ: ومن نظر في فقه ابن حزم، وسبر طريقته في الاحتجاج، يتبين له أنَّه ـ رغم إنكاره القياس ـ يستعمل أسلوباً جدلياً عقلياً، وتأمَّل كلامه هنا تجده قد استدلَّ علىٰ إبطال القياس، بقياس: (القياس في الدِّين) علىٰ: (القياس في أحوال النَّاس)!! وهذا قياس فاسد!! لأنَّ القياس في أحوال النَّاس لا ينضبط، أمَّا القياسُ في الشَّرع فإنَّه ينضبطُ بنصوص الكتاب والسنَّة، وأصول الشريعة، وقواعد الاجتهاد والاستدلال.

(١) في (س) و (د) و (ي): (التَّفريط).

(٢) الخُرْقُ: ضدُّ الرِّفق، وأن لا يحسن الرجل العمل والتَّصرُّف في الأمور، والحُمْقُ.

(٣) إثبات واو العطف من (د).

عليهم عداوتَهُ، ولم يزدْ علىٰ استخفافِ عدُوِّه له، وتمكينِهِ من مقاتِلِهِ، وإفسادِ صَديقِهِ علىٰ نفسه، وإلحاقِهِ بجُمْلَةِ أعدائِهِ.

غايةُ الخَيْرِ أنْ يَسْلِمَ عدُوكَ من ظُلْمِكَ، ومِنْ تَرْكِكَ إيَّاه للظُّلْمِ، وأمَّا تَقْرِيبُهُ فمن شِيَمِ النَّوكىٰ الذينَ قد قَرُبَ منهم التَّلَفُ.

وغايةُ الشَّرِّ أنْ يَسْلَمَ[1] صدِيقُكَ من ظُلْمِكَ، وأمَّا إبعادُهُ فمنْ فِعْلِ من لا عَقْلَ له، ومن كُتِبَ عليه الشَّقاءُ.

ليس الحِلْمُ تقريبَ العدوِّ، ولكنَّه مُسَالَمَتُهُمْ مع التَّحَفُّظِ منْهُمْ.

[٢٢٥][2] كَمْ رأينا مِنْ فاخرٍ بما عِنْدَهُ من المتاع، كانَ ذلك سبباً لهلاكِهِ، فإيَّاكَ وهذا البابُ الذي هو ضُرٌّ مَحْضٌ، لا مَنْفعةَ فيه أصلاً.

[٢٢٦] كم شاهَدْنا مِمَّنْ أهلَكَهُ كلامُهُ، ولم نَرَ قطُّ أحداً ولا بلَغنا؛ أنَّه أهلَكَهُ سكوتُهُ، فلا تتكلَّم إلَّا بما يُقرِّبُكَ من خالِقِكَ، فإنْ خِفْتَ ظالماً فاسْكُتْ.

[٢٢٧] قلَّ ما رأيتُ أمراً أَمكنَ فضُيِّعَ؛ إلَّا فاتَ فلَمْ يُمْكِنْ بَعْدُ.

[٢٢٨] مِحَنُ الإنسانِ في دَهْرِهِ كثيرةٌ، وأَعْظَمُها محنَتُهُ بأهلِ نَوْعِهِ من الإنسِ.

---

(١) كذا في الأصل مجوَّدة واضحة، وكذلك هو في (س) و(د) و(ي)، لكن في الأخيرتين: (تسلم) بالتاء، وفي (ب): (أنْ لا).

(٢) هذه الفقرة والتي بعدها من (ع)، وسقطت من بقية النسخ.

[٢٢٩] داءُ الإنسانِ بالنَّاسِ أعظَمُ من دائِهِ بالسِّباعِ الكلِبَةِ، والأفاعي الضَّارِيةِ، لأنَّ التَّحفُّظَ من كلِّ ما ذكرنا مُمْكِنٌ، ولا يُمْكِنُ التَّحفُّظُ من الإنسِ أصلاً.

[٢٣٠] الغالبُ علىٰ النَّاسِ النِّفاقُ، ومن العَجَبِ أنَّه لا يجوزُ مع ذلكَ عِندهم إلَّا من نافَقَهُم.

[٢٣١] لو قالَ قائِلٌ: إنَّ في الطِّباعِ كُرِّيَّةً ـ لأنَّ أطرافَ الأضدادِ تَلْتَقِي ـ؛ لم يَبْعُدْ من الصِّدقِ. وقد نَجِدُ نتائجَ الأضدادِ تتساوىٰ فنَجِدُ المرءَ يَبْكِي من الفَرَحِ ومن الحُزْنِ، ونَجِدُ فَرْطَ المودَّةِ يَلْتقي مع فَرْطِ البِغْضَةِ في تَتَبُّعِ العَثَراتِ، وقد يكونُ ذلك سبباً للقطيعةِ عند من عَدِمَ الصَّبْرَ والإنْصافَ.

[٢٣٢] كلُّ من غلبتْ عليه طبيعةٌ ما فإنَّهُ ـ وإنْ بلَغَ الغايةَ من الحَزْمِ والحَذَرِ ـ فإنَّهُ مَصْرُوعٌ إذا كُويدَ مِنْ قِبَلِها.

[٢٣٣] كَثْرةُ الرِّيَبِ تُعَلِّمُ صاحبها الكذبَ، لكثرةِ ضرورته إلى الاعتذارِ بالكَذِبِ، فيَضْرىٰ عليه، ويَسْتَسْهِلَهُ.

[٢٣٤] أعدلُ الشُّهودِ علىٰ المَطْبُوعِ علىٰ الصِّدقِ؛ وَجْهُهُ، لظُهورِ الاسْتِرابَةِ عليه إنْ وَقَعَ في كِذْبَةٍ أوْ هَمَّ بها، وأعْدلُ الشُّهودِ علىٰ الكذَّابِ لِسَانُهُ؛ لاضْطِرابِهِ، ونقضِ بعضِ كلامِهِ بعضاً.

[٢٣٥] المصيبةُ في الصَّديقِ النَّاكِثِ أعظمُ مِن المُصيبةِ به.

[٢٣٦] أشدُّ النَّاسِ استعظاماً للعُيوبِ بلسانه هو أشدُّهم استسهالاً لها بفعْلِه، ويتبيَّنُ ذلك في مُسافهاتِ أهلِ البذاءِ،

ومُشاتَمات الأرْذال، البالغين غايةَ الرَّذالةِ من الصِّناعات الخسيسَةِ من الرِّجالِ والنِّساءِ، كأهلِ التَّعَيُّشِ بالزَّمير[1]، وكَنْسِ الحُشُوشِ[2]، والخَادِمينَ في المجازِرِ، وساكني دورِ الجمل المُباحَةِ لكِراءِ الجماعاتِ[3] والسَّاسَةِ للدَّوابِ، فإنَّ كلَّ من ذكرنا أشدُّ الخَلْقِ رمياً من بعضهم لبعضٍ بالقبائح، وأكثرُهم عيباً بالفضائح، وهم أوغلُ النَّاس فيها، وأشْرَهُهُمْ بها[4].

[٢٣٧] اللقاءُ يَذْهَبُ بالسَّخائِمِ، فكأَنَّ نظرَ العينِ إلىٰ العينِ يُصْلِحُ القلوبَ، فلا يَسُوؤُكَ الْتِقاءُ صَديقِكَ بعدوِّكَ، فإنَّ ذلكَ يُفْتِرُ أمرَهُ عِنْدَهُ.

[٢٣٨] أشدُّ الأشياءِ علىٰ النَّاسِ الخوفُ، والهَمُّ، والمرضُ، والفَقرُ، وأشدُّها ـ كلِّها ـ إيلاماً للنَّفسِ الهَمُّ لِلْفَقْدِ من المحبوبِ، وتوقُّعِ المكروه، ثُمَّ المَرَضُ، ثُمَّ الخوفُ، ثُمَّ الفقرُ، ودليلُ ذلكَ أنَّ الفقرَ يُسْتَعْجَلُ لِيُطْرَدَ به الخوفُ؛ فيَبْذُلُ المرءُ مالَه ـ كلَّه ـ ليأْمَنَ، والخوفُ والفقرُ يُسْتَعْجَلانِ لِيُطْرَدَ بهما أَلَمُ المرضِ؛ فيُغرِّر الإنسانُ في طلبِ الصِّحَّةِ، ويبذلُ ماله فيها إذا أشْفَقَ من الموتِ، ويودُّ ـ عند يَقِينِهِ به ـ لو بَذَلَ ماله ـ كلَّه ـ ويَسْلَمُ ويُفِيقُ. والخوفُ يُسْتَسْهلُ لِيُطْرَدَ به الهَمُّ فيغرِّر المرءُ بنفسه ليَطْرِدَ عنها الهَمَّ، وأشدُّ الأمراضِ ـ كلِّها ـ ألماً وجعٌ ملازِمٌ في عضوٍ ما بعَيْنِهِ.

---

(١) في: (ي): (بالزُّمر)، يقال: زَمَرَ زمراً، وزمَّر تزميراً: غنَّىٰ في القصب. فلعل المقصود من امتهن هذا، والله أعلم.

(٢) جمع حُشّ، والمقصود: الكنيف.

(٣) زاد في (ب): (الرَّذلة).

(٤) في النسخ الأخرىٰ: (أشهرهم بها).

وأمَّا النفوسُ الكريمةُ؛ فالذُّلُّ عندها أشدُّ مِمَّا ذكرنا، وهو أسهلُ المَخُوفات عند ذوي النُّفوس اللَّئيمَةِ.

[٢٣٩][1] وممَّا قُلْتُه في الأخلاقِ:

إنَّـمـا الـعَـقْـلُ أَسَـاسٌ … فَـوْقَـهُ الأخْـلاقُ سُـورْ
فَـحَـلِّي[2] الـعَـقْـلَ بـالـعِـلْـ … ـمِ وإلَّا فـهْـو بُـورْ
جـاهِـلُ الأشـيـاءِ أعْـمـىٰ … لا يَـرىٰ حـيـثُ[3] يـدُورْ
وتَـمـامُ الـعِـلْـمِ بـالـعَـدْ … لِ وإلَّا فَـهُـو زُورْ
وزِمـامُ الـعَـدْلِ بـالـجُـو … دِ وإلَّا فـيَـجُـورْ
ومِـلاكُ الـجُـودِ بـالـنَّـجْـ … ـدَةِ والـجُـبْـنُ غُـرُورْ
عِـفَّ إنْ كـنـتَ غـيـوراً … مـا زَنـىٰ قـطُّ غـيـورْ
وكـمـالُ الـكُـلِّ بـالـتَّـقْـ … ـوىٰ وقـولُ الـحـقِّ نُـورْ
ذي أصـولُ الـفَـضْـلِ عَـنْـهـا … حَـدَثَـتْ بَـعْـدُ الـبُـذُورْ

و[ممَّا قُلْتُهُ] أيضاً:

زِمَامُ أُصُولِ جَمِيعِ الْفَضَائِـ … ـلِ عَدْلٌ وَفَهْمٌ وجُودٌ وباسْ
فَمِنْ هٰذِهِ رُكِّبَتْ غَيْرُها … فَمَنْ حازَها فَهُو في النَّاس راسْ
كذا الرَّاسُ فِيهِ الأُمورُ الَّتي … بإحْسَاسِها يُكْشَفُ الالْتِباسْ

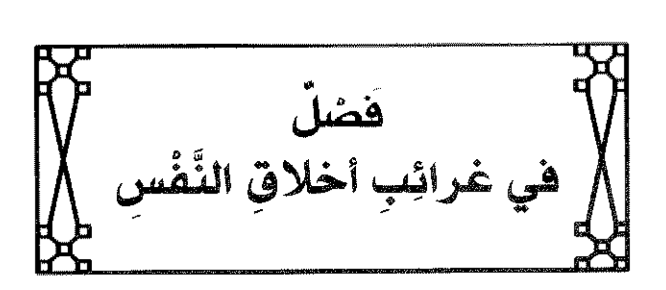
❀ ❀ ❀

---

(١) وقعت هذه الأبيات في النُّسخ الأربع بعد الفقرة (١٤٩)، والتزمنا ترتيب الأصل.

(٢) النسخ الأخرىٰ: (فصل).

(٣) في (س) و(د) و(ي): (كيف).



فَصْلٌ
في غرائِبِ أخلاقِ النَّفْسِ

[٢٤٠] يَنْبَغي للعاقلِ أنْ لا يَحْكُمَ بما يَبْدُو له من استرحام الباكي المُتَظَلِّمِ، وتَشَكِّيهِ، وشِدَّةِ تَلَوِّيهِ[1] وتَقَلُّبِهِ وبُكائِه، فقد وقفتُ من بعضِ مَنْ يَفْعلُ هذا علىٰ يقينٍ أنَّه الظَّالمُ المعتدي، المُفْرِطُ الظُّلْمِ، ورأيتُ بعضَ المَظْلُومِينَ ساكِنَ الكلام، معْدُوم التَّشَكِّي، مُظْهِراً لقلَّةِ المُبالاةِ، فيَسْبِقُ إلىٰ نَفْسِ من لا يُحَقِّقُ النّظر أنَّه ظالِمٌ. وهذا مكانٌ يَنْبغي التَّثَبُّتُ فيه، ومغالَبَةُ مَيْل النَّفْس جملةً، وأنْ لا يَمِيلَ المرءُ مع صِفَةِ الَّذي ذكرنا، ولا علَيْها، لكنْ يقصدُ الإنصافَ بما يُوجِبُهُ الحقُّ علىٰ السَّواءِ.

[٢٤١] من عجائِبِ الأخلاقِ أنَّ الغَفْلَةَ مذمُومةٌ، وأنَّ استعمالها مَحْمُودٌ، وإنَّما ذلك لأنَّ من هو مَطْبُوعٌ علىٰ الغفلة يَسْتَعْمِلُها في غيرِ مَوْضِعِها، وفي حيثُ يجبُ التَّحفُّظ، وهو مُغَيَّبٌ[2] عن فَهْمِ الحقيقةِ، فدخلتْ تحتَ الجهلِ فذُمَّتْ لذلك.

---

(١) في (ب): (تلوّمه).

(٢) كذا في الأصل، وفي النسخ الأخرىٰ: (وهي مغيب)، وقرأها الدكتور إحسان عباس: (وهي [illegible])، وهذه قراءة وجيهة، لكنها لا توافق النسخ الخطية.

وأمَّا المُتيقِّظُ الطَّبعِ؛ فإنَّه لا يضعُ الغَفْلةَ إلَّا في موضعها الذي يُذمُّ فيه البَحْثُ والتَّقصِّي. والتَّغافُلُ فَهْمٌ للحقيقةِ، وإضرابٌ عن الطَّيْش، واستعمالٌ للحِلْم، وتسكِينٌ للمَكْرُوه، فلذلكَ حُمِدَتْ حالةُ التَّغافُلِ، وذُمَّت الغَفْلَةُ.

[٢٤٢] وكذلكَ القولُ في إظهارِ الجَزَع وإبْطَانِه، وفي إظهارِ الصَّبْر وإبْطانِهِ، فإنَّ إظهارَ الجَزَع عند حلولِ المصائِبِ مَذْمُومٌ، لأنَّه عَجَز مُظْهِرُهُ عن مَلْكِ نَفْسِهِ، فأظهرَ أمراً لا فائدةَ فيه بل هو مذْمُومٌ في الشَّريعةِ، وقاطعٌ عمَّا يلزمُ من الأعمالِ، وعن التَّأَهُّبِ لما يُتوَقَّعُ حلوله مِمَّا لعلَّه أشْنَعُ من الأمر الواقعِ الذي عليه حَدَثَ الجزَعُ.

فلمَّا كانَ إظهارُ الجَزَع مَذْمُوماً كانَ ضِدُّهُ محموداً، وهو إظهارُ الصَّبْرِ لأنَّه مَلْكٌ للنَّفْسِ، واطِّراحٌ لما لا فائدةَ فيه، وإقبالٌ علىٰ ما يعودُ ويَنْفَعُ فِي الحال، وفي المُسْتأْنَفِ.

وأمَّا استبطانُ الصَّبْرِ فمَذْمُومٌ لأنَّه ضَعْفٌ في الحِسِّ، وقَسْوةٌ في النَّفْسِ، وقِلَّةُ رحمةٍ، وهذه أخلاقُ سوءٍ لا تكونُ إلَّا في أهلِ الشَّرِّ، وخُبْثِ الطَّبيعةِ، وفي النُّفوسِ السَّبُعِيَّةِ[1] الرَّدِيَّةِ.

فلمَّا كانَ ذلكَ نتيجةَ ما ذكرنا[2]؛ كانَ ضدُّه محموداً، وهو

(١) نسبةً إلىٰ السَّبُع، وهو المفترس من الحيوان.

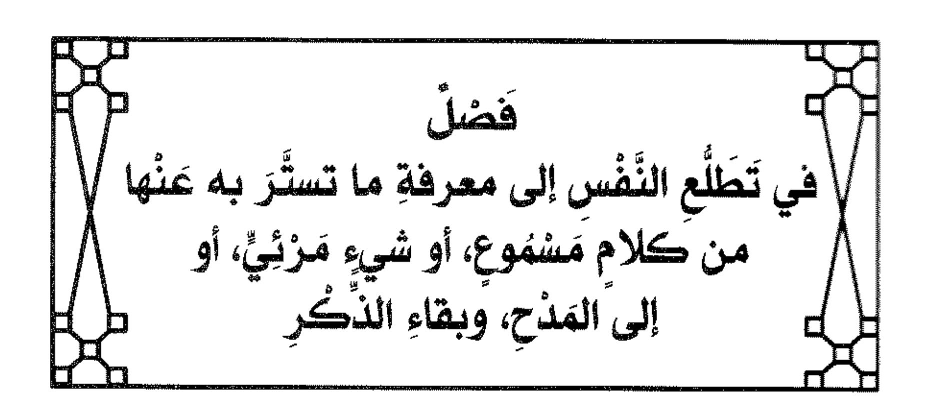
(٢) وفي (د) و(ي): (فلمَّا كان ذلك يقبِّحه ما ذكرنا)، وفي (س): (فلمّا كان ما ذكرنا يقبّح).

استبطانُ الجزعِ، لما في ذلك من الرَّحْمةِ [والرِّقّة] والشَّفقة، والفَهْم بقدْر الرَّزيَّة.

فصَحَّ بهذا أنَّ الاعتدال هو أنْ يكونَ المرءُ جَزُوعَ النَّفْس، صَبُورَ الجَسَدِ، بمعنىٰ: ألَّا يَظْهَرَ في وَجْهِهِ، ولا في جوارحه شِيءٌ من دلائِلِ الجَزَع.

[٢٤٣] ولو عَلِمَ ذُو الرأي الفاسِدِ ما اسْتَضرَّ به من فساد تَدْبيرِهِ في السَّالِفِ؛ لأَنْجَحَ بتَرْكِ اسْتِعْمالِهِ فيما يَسْتَأْنِفُ، وبالله التَّوفِيقُ.

❁ ❁ ❁



فَصْلٌ
في تَطَلُّعِ النَّفْسِ إلى معرفةِ ما تستَّرَ به عَنْها من كلامٍ مَسْمُوعٍ، أو شيءٍ مَرْئِيٍّ، أو إلى المَدْحِ، وبقاءِ الذِّكْرِ

[٢٤٤] هٰذانِ أمرانِ لا يكادُ يسلَمُ منهما أحدٌ إلَّا ساقطُ الهِمَّةِ جدّاً، أو مَنْ راضَ نفسَهُ الرِّياضةَ التَّامَّةَ، وقَمَعَ قوَّةَ نفسِهِ الغَضَبِيَّةَ قَمْعاً كاملًا.

ومداواةُ شَرَهِ النَّفْسِ إلىٰ سماعِ كلامٍ تستر به عنها، أو رُؤيةِ شيءٍ اكْتُتِمَ به دُونَها؛ أن يُفكِّر في ما غابَ عنها من هذا النَّوع في غيرِ موضعه الذي هو فيه بَلْ في أقْطارِ الأرض المُتَبايِنَةِ، فإن اهْتَمَّ بكلِّ ذلك فهو مَجْنُونٌ، تامُّ الجنونِ، عَدِيمُ عقلٍ ألبَتَّةَ. وإن لم يهتَمَّ لذلك فهل هذا الذي اخْتُفِيَ به عنه إلَّا كسائِرِ ما غابَ عنه منه، سواءً سواءً، ولا فرقَ. ثُمَّ ليَزِدْ احتجاجاً علىٰ هواهُ فلْيَقُلْ بلسانِ عَقْلِهِ لنَفْسِهِ: يا نَفْسُ أرَأَيْتِ لو لم تَعْلَمِي أنَّ هاهنا شَيئاً أُخْفِي عنكِ أكُنْتِ تَتَطَلَّعِينَ إلىٰ معرفة ذلك؟! فلا بُدَّ من: لا! فليَقُلْ لنفْسِهِ: فكُوني الآنَ كما كنتِ تكُونِينَ لو لم تَعْلَمي أنَّ هاهُنا

شيئاً سُتِرَ عنك، فتربحي الرّاحةَ، وطردَ الهمّ وألم القلق وقُبْح صفةِ الشَّرَه، وتلكَ غنائِمُ كثيرةٌ، وأرباحٌ جليلَةٌ، وأغْراضٌ فاضِلَةٌ سَنِيّةٌ، يرغبُ العاقِلُ فيها، ولا يَزْهَدُ فيها إلّا تامُّ النَّقْصِ.

[٢٤٥] وأما من علَّقَ وَهْمَهُ وفِكْرَهُ بأنْ يَبْعُدَ اسمُهُ في البلادِ، ويَبْقىٰ ذِكْرُه علىٰ الدُّهور، فلْيتفكَّر في نفسه، ولْيَقُلْ لها: يا نَفْسُ أرأيتِ لو ذُكِرْتِ بأفضلِ الذِّكْرِ في جميعِ أقطارِ المَعْمُورِ أبدَ الأَبَدِ، إلىٰ انقضاءِ الدُّهورِ، ثُمَّ لم يَبْلُغْني ذلكَ، ولا عَرَفْتُ به، أكانَ لي في ذلكَ سُرورٌ أو غِبْطَةٌ أصلاً؟! فلا بدَّ من لَا! ولا سبيلَ إلىٰ غيرِها ألبَتَّةَ، فإذا صَحَّ ذلك وتُيُقِّنَ؛ فليعلَمْ يقيناً أنَّه إذا ماتَ فلا سبيلَ له إلىٰ علم أنَّهُ يُذْكَرُ، أو أنَّه لا يُذْكَرُ، وكذلك؛ وإذا كانَ حيّاً إذا لم يَبْلُغْهُ.

ثُمَّ ليتفكَّر ـ أيضاً ـ في معنَيَيْنِ عَظِيمَيْنِ؛ أحدُهُما: كثرةُ مَنْ خَلَا مِنَ الفضلاءِ من الأنبياءِ، والرُّسُلِ ـ صلى الله عليهم وسلم ـ أوّلًا، الذينَ لم يَبْقَ لهم علىٰ أَدِيمِ الأرضِ عند أحدٍ من النَّاس اسمٌ، ولا رَسْمٌ، ولا ذِكرٌ، ولا خَبَرٌ، ولا أَثَرٌ، بوَجْهٍ من الوُجُوهِ، ثُمَّ من الفضلاءِ الصَّالحِينَ من أصحاب الأنبياءِ، والزُّهادِ، ومن الفلاسفةِ، والعُلَماءِ، والأخيارِ، ومُلُوكِ الأممِ الدَّاثِرَةِ، وبُناةِ المُدُنِ الخاليةِ، وأَتْباعِ الملوكِ الَّذينَ ـ أيضاً ـ قد انقطعتْ أخبارُهُم، فلم يبقَ لهم عند أحدٍ عِلْمٌ، ولا لأحدٍ بهم معرفةٌ أصلاً ألبَتَّةَ. فهل ضَرَّ من كانَ فاضلاً منهم ذلك، أو نقصَ من فضائِلِهم، أو طَمَسَ من محاسنهم، أو حَطَّ درجتَهم عند بارئهم ـ عزَّ وجلَّ ـ؟!

ومن جَهِلَ هذا الأمرَ فلْيعلم أنّه ليس في شيءٍ من الدُّنيا خَبَرٌ عن ملوكٍ من ملوك الأجيالِ السَّالفة أبعدَ ممّا بأيدي النّاس من تاريخِ ملوكِ بني إسرائيل فقط. ثُمّ ما بأَيْدِينَا من تاريخ ملوك يونانَ والفرسِ، وكلُّ ذلك لا يتجاوزُ ألفَيْ عامٍ، فأينَ ذِكْرُ من عَمَّرَ الدُّنيا قبلَ هؤلاء؟! أليسَ قد دَثَرَ، وفَنِيَ، وانْقَطَعَ، ونُسيَ البَتَّةَ؟! وكذلكَ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢]. وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٠]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فهل الإنسانُ ـ وإنْ ذُكِرَ برهةً من الدَّهر ـ إلّا كمَنْ خلا قَبْلُ من الأممِ الغابِرَةِ الذَّينَ ذُكِرُوا ثم نُسُوا جُمْلَةً.

ثُمَّ ليتفكَّر الإنسانُ فيمن ذُكِرَ بخيرٍ، أو بِشَرٍّ؛ هل يزيدُهُ ذلك عند الله ـ تعالىٰ ـ درجةً، أو يُكْسِبُهُ فضيلةً، لم يكن حازها بفعله، أيّامَ حياته.

فإذْ هذا كما قُلْنا؛ فالرَّغْبةُ في الذِّكْرِ رغبةُ غرورٍ، ولا معنىٰ له، ولا فائدةَ فيه أصلًا، لكن إنّما ينبغي أنْ يَرْغَبَ العاقلُ في الاستكثارِ من الفضائل، وأعمالِ البرِّ التي يستحقُّ مَنْ هي فيه الذِّكْرَ الجميلَ، والثّناء الحَسَنَ، والمَدْحَ، وحميدَ الصِّفةِ، فهي التي تُقَرِّبُهُ مِنْ بارئِه ـ تعالىٰ ـ، وتَجْعَلُهُ مذكوراً عنده ـ عزَّ وجلَّ ـ الذِّكْرَ الذي ينفعه، ويحصلُ علىٰ فائدتِهِ، ولا يَبِيدُ أَبَدَ الأبدِ، وبالله التَّوفيق.

[٢٤٦] شُكْرُ المُحْسِنِ[1] فرضٌ واجبٌ[2]، وإنّما ذلكَ بالمُقارَضَةِ له بمِثْلِ ما أحسنَ فأكثرَ، ثُمَّ التَّهمُّمُ بأموره، والتَّأتِّي بحُسْنِ الدِّفاعِ عنه، ثُمَّ بالوفاءِ له حيّاً ومَيْتاً، ولِمَنْ يتَّصِلُ به من ساقَةٍ وأهلٍ كذلكَ، ثُمَّ بالتَّمادي علىٰ وُدِّهِ ونصيحَتِهِ، ونَشْرِ محاسِنِهِ بالصِّدقِ، وطَيِّ مساويه، ما دُمْتَ حيّاً، وتَوْريثِ ذلك عَقِبَكَ وأهلَ وُدِّكَ.

وليسَ من الشُّكْرِ عَوْنُهُ علىٰ الآثامِ، وتَرْكُ نصيحَتِهِ في ما يُوتِغُ[3] دِينَهُ ودُنْياهُ، بل من عاونَ من أحسنَ إليه علىٰ باطلٍ؛ فقد غَشَّهُ، وكَفَرَ إحسانَهُ، وظَلَمَهُ، وجَحَدَ إنْعامه.

وأيضاً: فإنَّ إحسانَ الله ـ تعالىٰ ـ وإنْعامَهُ علىٰ كلِّ أحدٍ أعظمُ وأقدمُ وأَهْنَأُ من نعمةِ كلِّ مُنْعِمٍ دونَهُ، فهو ـ تعالىٰ ـ الَّذي شقَّ لنا الأبصارَ النَّاظِرَةَ، وفَتَقَ فينا الآذانَ السَّامِعَةَ، ومَنَحنا الحواسَّ الفاضِلَةَ، ورزَقَنا النُّطْقَ، والتَّمْييزَ؛ الَّذَيْنِ بهما استأْهَلْنا أنْ يُخاطِبنا، وسَخَّرَ لنا ما في السماءِ والأرضِ من الكواكبِ والعناصرِ، ولم يُفضِّل علينا مِنْ خَلْقِهِ شَيْئاً غيرَ ملائكَتِهِ المُقَدَّسينَ الَّذينَ هُمْ عُمَّارُ السَّمواتِ فَقَطْ[4]، فأينَ تقعُ نِعَمُ المُنْعِمينَ مِنْ هٰذه النِّعَمِ؟!

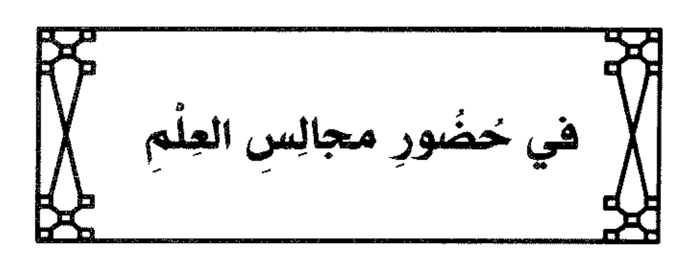
(١) في (د) و(ي): (المُنْعِم).
(٢) وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ؛ لا يَشْكُرُ اللَّهَ». رواه الترمذيُّ (١٩٥٤) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ به؛ بإسنادٍ صحيح.
(٣) أي: يُفْسِدُ ويُهْلِكُ.
(٤) هذا مبنيٌّ علىٰ مسألة التَّفضيل بين الملائكة والنَّاس، ومذهبُ المصنِّف ـ كما ذكر هنا ـ هو أنَّ بني آدم أفضلُ من كلِّ خلقٍ سوىٰ الملائكة، والملائكةُ هم أفضلُ =

فمن قدَّرَ أنَّه يشكُرُ مُحسناً إليه بمساعدته علىٰ باطلٍ، أو بمُحابَاتِهِ فيما لا يجوزُ؛ فقد كفر نعمةَ أعظمِ المُنْعِمين عليه، وجَحَدَ إحسانَ أجلِّ المحسنين إليه، ولم يَشْكُرْ وليَّ الشُّكْرِ حقّاً، ولا حَمَدَ أهلَ الحَمْدِ أصلاً، وهو الله ـ تعالىٰ ـ.

ومَنْ حالَ بين المُحْسِنِ إليه، وبينَ الباطلِ وأَقامَهُ علىٰ مُرِّ الحقِّ؛ فقد شَكَرَهُ حقًّا، وأدَّىٰ واجبَ حقِّه عليه مُسْتَوْفىً، ولله الحمدُ أوَّلًا وآخراً، وعلىٰ كلِّ حالٍ.

❁ ❁ ❁

= خلق الله تعالىٰ، نصَّ علىٰ هذا في: «المحلّىٰ» ١/٣٣، وفصّل القول فيه، واحتجّ له في: «الفِصل في الملل والنحل» ٥/١٤ ـ ١٨. ويرىٰ شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أنَّ صالحي البشر أفضلُ باعتبار كمال النِّهاية، والملائكةُ أفضلُ باعتبار البداية، فإنَّ الملائكةَ الآنَ في الرَّفيق الأعلىٰ منزَّهُونَ عمّا يُلابِسُهُ بنو آدم، مستغرقون في عبادة الربّ، ولا ريب أنَّ هذه الأحوال الآنَ أكملُ من أحوال البشر. وأمّا يوم القيامة ـ بعْد دخول الجنَّة ـ فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة. راجع هذا وتفصيله في بحث قيم في: «مجموعة الفتاوىٰ» (مفصّل الاعتقاد: ٤/٢١١ و٢١٥ ـ ٢٣٩، ط. العبيكان).



في حُضورِ مجالِسِ العِلْمِ

[٢٤٧] إذا حضرتَ مجلسَ علمٍ فلا يكُنْ حضُورُكَ إلَّا حضورَ مُسْتزيدٍ عِلْماً وأَجْراً، لا حضورَ مُسْتَغْنٍ بما عندكَ، طالبَ عَثْرَةٍ تُشيعُها، أو غَرِيبَةٍ تُشَنِّعُها، فهذه أفعالُ الأرذالِ الَّذينَ لا يُفْلِحُونَ في العِلْمِ أبداً.

فإذا حَضَرْتَها علىٰ هذه النِّيَّةِ فقد حصلتَ خيراً علىٰ كلِّ حالٍ. فإنْ لم تحضُرْها علىٰ هذه النِّيَّةِ فجلوسُكَ في مَنْزِلِكَ؛ أروحُ لبَدَنِكَ، وأكرمُ لخُلُقِكَ، وأسلمُ لدِينِكَ.

[٢٤٨] فإذا حَضَرْتها ـ كما ذكرنا ـ فالْتَزِم أحدَ ثلاثةِ أوجهٍ، لا رابعَ لها، وهي:

إمَّا أنْ تَسْكُتَ سكوتَ الجُهَّالِ فتحصلَ علىٰ أجر النِّيَّةِ في المُشاهَدة، وعلىٰ الثَّناءِ عليكَ بقِلَّةِ الفُضُول، وعلىٰ كَرَمِ المُجالَسَةِ، ومودَّةِ من تُجالس.

فإنْ لم تفعلْ ذلكَ؛ فاسألْ سؤالَ المتعلِّم، فتحصلُ علىٰ هذه الأربعِ المَحَاسِنِ، وعلىٰ خامسةٍ؛ وهي استزادةُ العِلْمِ.

وصفةُ سؤالِ المُتَعَلِّم هو أنْ تسأَلَ عمَّا لا تدري، لا عمَّا

تدري، فإنَّ السؤالَ عمّا تدريه سُخْفٌ وقِلّةُ عقلٍ، وشُغْلٌ لكلامِكَ، وقَطْعٌ لزمانِكَ، بما لا فائدةَ فيه؛ لا لكَ ولا لِغَيْرِكَ، وربّما أدّىٰ إلىٰ اكتسابِ العداوات، وهو ـ بَعْدُ ـ عَيْنُ الفضولِ، فيَجِبُ عليكَ ألّا تكونَ فُضوليّاً؛ فإنّها صفةُ سوءٍ.

فإنْ أجابَكَ الذي سألتَ بما فيه كفايةٌ لكَ فاقْطَعِ الكلامَ، وإنْ لم يُجِبْكَ بما فيه كفايةٌ، أو أجابَكَ بما لم تَفْهَمْ فقُلْ له: لم أفهم. واسْتَزِدْهُ. فإنْ لم يَزِدْكَ بياناً، وسكتَ، أو أعادَ عليكَ الكلامَ الأوّلَ، ولا مَزِيدَ؛ فأمسكْ عنه، وإلّا حَصَلْتَ علىٰ الشَّرِّ، والعداوةِ، ولم تَحْصُلْ علىٰ ما تُرِيدُ من الزِّيادةِ.

والوجهُ الثالثُ؛ أنْ تُراجِعَ مراجعةَ العالم، وصفةُ ذلكَ أنْ تعارِضَ جوابَهُ بما يَنْقُضُهُ نقضاً بيّناً، فإنْ لم يَكُنْ ذلكَ عِنْدَكَ، ولم يكنْ عندكَ إلّا تكرارُ قَوْلِكَ، أو المُعَارَضَةُ بما لا يراهُ خَصْمُكَ معارضةً فأمْسِكْ، فإنَّكَ لا تحصُلُ ـ بتكرارِ ذلكَ ـ علىٰ أجرٍ زائدٍ، ولا علىٰ تعليمٍ، ولا علىٰ تعلُّمٍ، بل علىٰ الغَيْظِ لك، ولِخَصْمِكَ، والعداوةِ التي رُبَّما أدّتْ إلىٰ المَضرّاتِ.

[٢٤٩] وإيّاكَ وسؤالَ المُعَنِّتِ، ومراجعةَ المُكابِرِ، الّذي يطلبُ الغَلَبَةَ بغيرِ علمٍ، فهما خُلُقا سوءٍ، دليلانِ علىٰ قِلَّةِ الدِّينِ، وكَثْرَةِ الفُضُولِ، وضَعْفِ العَقْلِ، وقوّةِ السُّخْفِ، وحَسْبُنا اللَّهُ، ونِعْمَ الوكيل.

[٢٥٠] وإذا وَرَدَ عليكَ خطابٌ بلسانٍ، أو هَجَمْتَ علىٰ كلامٍ في كتابٍ، فإيّاكَ أنْ تقابلَهُ مقابلةَ المُغاضبةِ الباعثةِ علىٰ

المُغالَبَةِ قبلَ أنْ تتيقّن بطلانَهُ ببرهانٍ قاطعٍ. وأيضاً؛ فلا تُقبِلْ عليه إقبالَ المُصَدِّقِ به، المُسْتَحْسِنِ إيّاه قبلَ عِلْمِكَ بصِحّتِه ببرهانٍ قاطعٍ، فتَظْلِمَ في كلا الوجهَيْن نفسك، وتَبْعُدَ عن إدراكِ الحقيقة، ولكنْ أَقْبِلْ عليه إقبالَ سالمِ القلبِ عن النِّزاعِ عنه، والنُّزوعِ إليه، لكنْ إقبالَ مريدٍ حَظَّ نفسِهِ في فَهْمِ ما سَمِعَ ورأىٰ، والتَّزيُّدِ به علماً، وقُبُولِهِ إن كان حَسَناً، أو ردِّهِ إنْ كانَ خطأً، فمضمونٌ لك ـ إذا فعلتَ ذلكَ ـ الأجرُ الجزيلُ، والحَمْدُ الكثيرُ، والفضلُ العَمِيمُ، مع الوقوفِ علىٰ الحقيقةِ في أغلب الأَمْرِ.

[٢٥١][1] من اكتفىٰ بقَليلِهِ عن كثيرِ ما عندكَ؛ فقد ساواكَ في الغِنىٰ، ولو أنَّكَ قارونُ، حتّىٰ إذا تصاونَ في الكَسْبِ عن ما تَشْرَهُ أنتَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَصَلَ أغنىٰ مِنْكَ بكثيرٍ. ومن تَرَفَّعَ عمّا تَخْضَعُ إليه من أُمورِ الدُّنْيا؛ فهو أعزُّ منكَ بكثيرٍ.

[٢٥٢] فَرْضٌ علىٰ النّاسِ تعليمُ الخَيْرِ، والعملُ به، فمَنْ جَمَعَ الأمرينِ [جميعاً] فقد استوىٰ الفَضِيلَتَيْنِ معاً، ومن عَلِمَهُ ولم يَعْمَلْ به؛ فقد أحسنَ في التَّعْليم، وأساءَ في تركِ العملِ به، فخَلَطَ عملًا صالحاً، وآخرَ سيِّئاً، وهو خيرٌ من آخرَ لم يعلمْ ولم يَعْمَلْ به، فهذا الّذي لا خيرَ فيه؛ أمثلُ حالةً، وأقلُّ ذمّاً؛ من آخر ينهىٰ عن تعليم الخَيْرِ، ويَصُدُّ عنه.

[٢٥٣] ولو لَمْ يَنْهَ عن الشَّرِّ إلّا من ليسَ فيه منه شيءٌ، ولا أمرَ بالخيرِ إلّا من استوعبهُ؛ لما نهىٰ أحدٌ عن شرٍّ، ولا أمر

(١) هذه الفقرة من الأصل، وسقطت من باقي النسخ.

بخيرٍ، بعدَ النَّبيِّ ﷺ. وحسْبُك بمنْ أدَّىٰ رأيُهُ إلىٰ هذا فساداً، وسوءَ طَبْعٍ، وذَمَّ حالٍ، وباللهِ التَّوْفِيقُ.

[٢٥٤] قالَ أبو مُحَمَّدٍ ـ رضي اللَّهُ عنه ـ: فاعترضَ هاهنا إنسانٌ، فقالَ: كانَ الحسنُ ـ رضي اللَّهُ عنه ـ[(١)] إذا نهىٰ عن شيءٍ لا يأتِيهِ أصْلًا، وإذا أمرَ بشيءٍ كانَ شديدَ الأخذِ به. وهكذا تكونُ الحِكْمَةُ، وقد قِيلَ: أقبحُ شيءٍ في العالمِ أنْ يأمُرَ بِشيءٍ لا يأْخُذُ به في نفسه، أوْ يَنْهىٰ عن شيءٍ يَسْتَعْمِلُهُ.

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: كَذَبَ قائلُ هذا، وأقبحُ منه مَنْ لم يَأمُرْ بخيرٍ، ولا نهىٰ عن شَرٍّ، وهو مع ذلكَ يعملُ الشَّرَّ، ولا يعملُ الخَيْرَ.

قالَ أبو مُحمَّدٍ: وقدْ قالَ أبو الأَسْودِ الدُّؤَلي[(٢)]:

(١) هو: الحسنُ البصريُّ التَّابعيُّ ـ وقد تقدَّم ذكره: ٣٣ ـ؛ وليسَ كما توهَّم الدكتورُ مكّي؛ من أنَّه الحسنُ بنُ عليِّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنهما ـ، ومصدر خطئه ما في الكتاب من التَّرضية عليه، والمشهورُ أنَّ التَّرضية إنَّما تكونُ للصَّحابة. نعم؛ لكنَّه يطلق على غيرهم أحياناً، والمقصودُ هنا هو التابعيُّ قطعاً، كما يدلُّ عليه طبيعة الموضوع، وأيضاً: فقد روىٰ أبو نعيم في: «حِلْيَة الأولياء» (١٨١٠، ط: عطا) في ترجمة: الحسن البصريّ، بإسنادٍ ضعيفٍ، عن خالد بن صفوانَ ـ ولم أعرفه ـ؛ أنَّ الحسنَ كانَ: إنْ أمَرَ بأمرٍ كانَ أَعْمَلَ النَّاسِ به، وإنْ نهىٰ عن شيءٍ كانَ أتركَ النَّاس له. وروىٰ ـ أيضاً ـ (١٨٣٦) بإسنادٍ ضعيفٍ، عن أبي جميعٍ سالمٍ، قالَ: سمعتُ الحسنَ يقولُ: لقد أدركتُ أقواماً كانوا آمَرَ النَّاسِ بالمعروفِ؛ وآخذَهم به، وأنهىٰ النَّاس عن منكرٍ؛ وأتركهم له، ولقد بَقِينَا في أقوامٍ؛ آمَرَ النَّاسِ بالمعروف؛ وأبعدهم عنه، وأنهىٰ النَّاس عن المنكر؛ وأوقعهم فيه، فكيفَ الحياة مع هؤلاء؟!

(٢) ويقال: الدِّيلي، وهو العلَّامة الفاضل، قاضي البصرة، واسمه ظالم بن عمرو ـ علىٰ الأشهر، مِنَ التَّابعين، وكان أوّل من تكلَّم في النحو، وُلِدَ في أيَّام النبوَّة، وتوفي سنة (٦٩هـ)، ترجمته ومصادرها في: «سير أعلام النبلاء» ٤/٨١، و «تاريخ الإسلام» (وفيات: ٦١ ـ ٨٠هـ، ص: ٢٧٦).

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتأتي مِثْلَهُ ... عارٌ عليْكَ إذا فعلتَ عظيمُ

وابْدَأْ بِنَفْسِكَ فانْهَها عنْ غَيِّها ... فإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فأنتَ حكيمُ

فهناكَ يُقْبَلُ إنْ وَعَظْتَ ويُقتدىٰ ... بالعِلْمِ مِنْكَ ويَنْفَعُ التَّعْليمُ

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: إنْ كانَ أبو الأَسود إنَّما قَصَدَ بالإنكارِ المَجيءَ بما نهىٰ عنه المرءُ، وأنَّه يَتَضاعَفُ قُبْحُهُ منه مع نَهْيِه عنه؛ فقد أحْسَنَ، كما قالَ اللَّهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ولا يُظَنُّ بأبي الأسودِ إلَّا هذا. وأمَّا أنْ يكونَ نهىٰ عن النَّهْيِ عنِ الخُلُقِ المَذْمُومِ، فنَحْنُ نُعِيذُهُ باللهِ مِنْ هذا؛ فَهُوَ فِعْلُ من لا خَيْرَ فيه.

وقد صَحَّ عن الحَسَنِ أنَّه سَمِعَ إنساناً يقولُ: لا يجبُ أنْ يَنْهىٰ عن الشَّرِّ إلَّا من لا يَفْعَلُهُ. فقالَ الحَسَنُ: وَدَّ إبليسُ أنَّه ظفر مِنَّا بهذه؛ حتَّىٰ لا يَنْهىٰ أحدٌ عن مُنْكرٍ، ولا يَأْمُرَ بمَعْرُوفٍ!

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: صَدَقَ الحَسَنُ، وهو قولُنا ـ آنفاً ـ.

جعلنا اللَّهُ مِمَّن يُوَفَّقُ لِفعْلِ الخَيْرِ، والعمل به، ومِمَّن يُبْصِرُ رُشْدَ نفسه، فما أحدٌ إلَّا له عُيوبٌ؛ إذا نَظَرَها شَغَلَتْهُ عن غيره، وتوفَّانا علىٰ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ آمِين، آمين، ربَّ العالَمِينَ.

تَمَّ كتابُ الأخلاقِ والسِّيَرِ، والحَمْدُ لله

= والأبيات في: «جامع بيان العلم» (١١٨٨) منسوبة إليه، وتنسب لغيره، راجع تعليق أخينا العلامة الشيخ مشهور حسن آل سلمان على: «المجالسة» للدِّينوري (رقم: ٢١٨٥)